الرسالة التاسعة

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ

[ص : ٦٧]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن المتأمل في حالنا نحن المسلمين اليوم وحال زماننا وما ظهر فيه من الآفات والفتن ، وما حصل فيه من انفتاح كبير على الدنيا وزخرفها ، حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها أو مخلدون فيها .

إن المتأمل في كل ذلك ليشعر بالرهبة والخوف والإشفاق الشديد من هذه الحال ، وما نتج عنها من غفلة عما خلقنا من أجله ، ومن ركون للدنيا واطمئنان بها ، وغفلة شديدة عن الآخرة وتجاف عنها ، وعمّا فيها من المشاهد العظيمة والأهوال الجسيمة ، والنعيم المقيم أو العذاب المديد .

وقد وصف الله ـ عز وجل ـ أصحاب هذه الغفلة بقوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [يونس: ٧، ٨].

نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من حال أهل الغفلة وصفاتهم .

ولما كان اليوم الآخر أحد أصول الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد

بدونها ، ولما لليوم الآخر من أثر في حياة العبد وطاعته لأوامر الله ـ عز وجل ـ واجتناب نواهيه ، ولما في ذلك من صلاح القلوب وصلاح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولما في نسيان هذا اليوم العظيم والغفلة عنه من خطر عظيم على حياة الناس ومصيرهم ؛ حيث الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة ، فلا غرابة إذن أن يرد ذكر هذا اليوم كثيراً في القرآن ، حتى لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحاته الكريمة .

والعجب كل العجب أنه مع كل هذا التذكير والتنبيه والتحذير من ربنا الرحمن الرحيم من هذا اليوم العصيب ، وأثره على مستقبلنا الأبدي ، إلا أن حالنا في هذا الزمان حال الغافل اللاهي عن كل هذه التحذيرات ، فلا تكاد تجد منا ـ إلا من رحم الله ـ إلا من هو منشغل بالتفاهات من هذه الدنيا الدنية، قد استهلكت عليه وقته ، وأصبح في دوامة مستمرة منذ أن يصبح وحتى ينام آخر الليل .

وما هناك أشد من مرض الغفلة ، ولكن الأدهى والأمرّ أن يكون المرء من أهل الغفلة وهو لا يشعر بذلك ، وهذه الحالة ـ والعياذ بالله ـ قد تتحول إلى جمود وتحجر وقسوة ، ثم إلى لجاج وعناد .

وإذا كان الكتاب والسنة قد اهتما غاية الاهتمام بتفاصيل هذا اليوم المشهود ، وبأحوال هذا النبأ العظيم، فإنه من الحمق والجهل أن لا نهتم بما اهتم به كتاب ربنا ـ سبحانه ـ وسنة نبينا محمد ﷺ .

والدليل على هذا الحمق أن نجد الكثير منا ـ إلا من رحم الله ـ يكد ويتعب من أجل مستقبل قريب يسعى ـ بزعمه ـ لتأمينه ، وهذا المستقبل بالإضافة إلى

ما قد مرّ من عمْر الإنسان لا يتعدى في الغالب الستين أو السبعين سنة ، وقليل من يتجاوز ذلك ، ولنفرض أنه مائة أو أكثر ، فماذا يساوي بالنسبة إلى المستقبل البعيد الأبدي السرمدي والذي لا نهاية له ؟ إنه لا يساوي شيئاً، فلماذا نحن بالمستقبل القريب الفاني مشتغلون وعليه مثابرون ، وعن مستقبلنا الأبدي السرمدي منشغلون ولاهون ؟ إنه لابد من وقفة محاسبة وتأمل.

إن أعظم قضية يجب أن ينشغل بال كل واحد منا بها هي : قضية وجوده وحياته والغاية منها ، وقضية مستقبله ومصيره وشقائه وسعادته ؛ فلا يجوز أن يتقدم ذلك شيء مهما كان شأنه ، فكل أمر دونه صغير ، وكل خطب سواه حقير ، وهل هناك خطب أعظم وأفظع من أن يخسر الإنسان حياته وأهله ، ويخسر سعادته وسعادتهم ؟! فماذا بقي له بعد ذلك ؟ وما قيمة الدنيا الفانية وزخرفها وزينتها وراء ذلك ؟ قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الزمر: ١٥] .

ولو لم يكن في انتظارنا إلا الموت وسكراته وغصصه لكفى به واعظاً ومكدّراً ، فكيف ووراءه يوم البعث والحساب والجزاء والجنة أو النار.

يومٌ تحار فيه العقول ، وتذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، ويكون الولدان فيه شيباً .

لأجل كل ما سبق ، ولما آنسته من نفسي وكثير من إخواني من قسوة وغفلة في القلوب ؛ رأيت أن أكتب لنفسي وإخواني المسلمين عن هذا النبأ العظيم ، الذي نحن عنه غافلون ، وبدنيانا عنه مشتغلون.

وقد عنونت له بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾.

وتأتي هذه الرسالة ضمن سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم ، التي أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإخواني بها ، وأن يحسن القصد فيها . إنه سميع مجيب.

* * *

أهمية الموضوع

إنه لا يجهل أحد من المسلمين مشاهد اليوم الآخر وعظمة شأنه ، ويكفي أن نتدبر كتاب الله عز وجل لنجد ذلك الاهتمام العظيم بذكر اليوم الآخر ، وتقريره في كل موقع ومناسبة ؛ فتارة يربط بينه وبين الإيمان بالله عز وجل ، وتارة يفصل في ذكره تفصيلاً ؛ قلما يوجد مثله في أمور الغيب الأخرى ، ولقد ورد ذكره في القرآن بأسماء كثيرة ، ومن المعلوم أنه كلما كان للمسمى شأن عظيم كثرت أسماؤه .

وإذا سألنا عن الحكمة في هذا الاهتمام ، فالجواب واضح لمن تدبر القرآن ، ولكن في هذا المبحث سأتطرق - إن شاء الله - إلى الدوافع التي دفعت إلى إثارة هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات .

فمن الأمور التي كان لها الأثر في طرح الموضوع ما يلي :

١ - الانفتاح الشديد على الدنيا في هذا الزمان ، وما صاحب ذلك من مكر في الليل والنهار بأساليب ماكرة جديدة، ووسائل دعائية خبيثة ، تزين الدنيا في أعين الناس ، وتصدهم عن الآخرة . فإذا كان الصحابة رضي الله عنهم وهم على ما وصفهم الله عز وجل من الإيمان والتقوى - كان بعضهم يوصي بعضاً بالحذر من الدنيا ، والاستعداد للآخرة ، وإذا كان الرسول ﷺ كثيراً ما كان يذكرهم بالآخرة، ويتخوف عليهم من الدنيا .

إذا كان هذا هو حال سلفنا الصالح مع ما كانوا عليه من الإيمان ، ومع

أن الدنيا لم تنفتح عليهم مثل انفتاحها علينا اليوم ؛ فلا شك ولا ريب أننا أحوج منهم بكثير إلى أن نتذكر الآخرة ، ويذكر بعضنا بعضاً عظمة شأنها والاستعداد لها ، وأن يحذِّر بعضنا بعضاً من الركون إلى الدنيا والاغترار بها .

ومن المعلوم أنه كلما حصل التثاقل إلى الأرض ، وحب الدنيا وزينتها والتوسع في ملذاتها ، كثر النسيان لليوم الآخر والغفلة عنه ، وهذا هو الحاصل اليوم عند كثير منا إلا من رحم الله .

٢ ـ لقد ترتب على الأمر السابق أن قست القلوب ، وتحجرت الأعين ، وهُجِرَ كتاب الله عز وجل ، وإن قرأ أحدنا القرآن قرأه بقلب لاه سابحٍ في لجج الدنيا ، فأنَّى لمثل هذا القلب أن يخشع لذكر الله ؟! وأنَّى للعين أن تدمع للخوف من الله سبحانه ؟

وقد زاد هذا الأمر ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ حتى آل إلى الصلاة ؛ فقلَّ الخاشعون المطمئنون فيها . وكيف يأتي الخشوع إلى قلب قد سافر في مناكب هذه الدنيا ، ينتقل فيها من واد إلى واد آخر ، ومن شعب إلى شعب ؟ فكان لابد من التذكير بهذا اليوم العظيم لعلَّ النفوس أن تستيقظ ، ولَعل القلوب أن تخشع وتتذكر .

٣ ـ لما في تذكر هذا اليوم ومشاهده العظيمة من حث على العمل الصالح ، ومبادرة إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، فما هنالك من أمر هو أشد دفعاً للنفوس إلى فعل الخير وترك الشر من أمر الآخرة ، والوقوف بين يدي الله عز وجل .

وما تكاسل المتكاسلون في عمل الصالحات ، سواء الواجب منها أو المستحب ، إلا بسبب الغفلة عن الآخرة والانشغال عنها .

قال تعالى في حال المطففين العاصين : ﴿ **أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المطففين: ٤ - ٦] .

وقال عن الطائعين المحسنين: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] .

وقال عزو جل: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ [الزمر: ٩] .

وقال عن الموالين لأعداء الله : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والحاصل أن حالنا اليوم وما اعتراه من ضعف في عمل الصالحات وجرأة على المعاصي والسيئات ، لا يصلحه إلا التذكر الدائم لأحوال الآخرة، ومشاهدها العظيمة ، وأهوالها الجسيمة ، كما أن ذلك يدفع إلى دعوة العاصين للرجوع إلى الله والشفقة عليهم من عذاب الله ونقمته .

٤ ـ لما ظهر في عصرنا اليوم من المشكلات المعقدة والأمراض المزمنة التي نشأت عنها تلك الأمراض النفسية المتنوعة ؛ حيث كثر القلق ، وكثرت الهموم والغموم لأهل الدنيا بسبب البعد عن الله سبحانه وعن تذكر اليوم الآخر، الذي في ذكره باب عظيم إلى السعادة والطمأنينة، وسد لباب الهم

والحزن ، وعلام يحزن طالب الدار الآخرة ؟! أيحزن على أمر دنيوي حقير يفنى عما قريب ؟!

إن تذكر اليوم الآخر والحياة الواسعة الأبدية هنالك لمن أكبر الأسباب في علاج المصائب وأمراضها ، فالمؤمن بفناء الدنيا وحقارة شأنها وقصر عمرها لا تؤثر فيه المصائب تأثيرها في أهل الدنيا ؛ لأنه يحتسب الأجر عند الله سبحانه ، ويوقن أنه إن لم تزل عنه الدنيا فإنه زائل عنها لا محالة ، وهذا كله يورث الطمأنينة والسعادة في القلب ، ولا يذهب القلب حسرات على الدنيا ، كما تفعل بأهلها اللاهين الغافلين عن الحياة الحقيقية ؛ الحياة في الدار الآخرة ، والتي هي خير وأبقى ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

٥ ـ وتأتي أهمية هذا الموضوع أيضاً لما تميز به زماننا اليوم من كثرة المظالم واعتداء الناس بعضهم على بعض من أكل أموالهم ، والنيل من أعراضهم ، وظهور الصور الصارخة من التحاسد والتباغض ، والفرقة والاختلاف ، وخاصة بين الدعاة وطلبة العلم ، وإنه لا شيء مثل تذكر اليوم الآخر والوقوف بين يدي الله عز وجل يكون دواءً ومطهراً للقلوب من مثل هذه الأمراض .

٦ ـ لما كان عصرنا الذي نعيش فيه اليوم عصر استضعاف للمسلمين ، وتسلط من الأعداء عليهم في أكثر بقاع الأرض ؛ فكان لزاماً على أهل الإسلام من علماء ودعاة وأغنياء ومجاهدين ، وغيرهم أن يبذلوا جهدهم في الدعوة إلى الله عز وجل ورد كيد الأعداء بالحجة واللسان والسنان.

ولما كان الركون إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة من أعظم الأسباب في وهن النفوس وضعفها وعدم مبالاتها ؛ كان لابد من التذكير بالدار الآخرة ، وما فيها من نعيم أو جحيم ؛ لأن في التذكير المستمر بهذا اليوم ، والإنابة إلى الله عز وجل، ورجاء ثوابه أكبر الأثر في الدعوة إلى الله عز وجل، والجهاد في سبيله ، والدفاع عن الدين وأهله ، قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ين (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ١٦٨وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِـ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة : ٤٤ ، ٤٥] .

كما يأتي تذكر هذا اليوم العظيم ليمسح على قلوب المؤمنين المستضعفين المبتلين اليوم في أكثر بقاع الأرض ؛ فتتقوى بذلك قلوبهم ، ويثبتها الله عزوجل بما يفتح عليها من ذكره ، وذكر ما أعد لأوليائه الصابرين من نعيم أبدي ، ينسون فيه أي سوء أو مصيبة أصابتهم في هذه الدنيا .

٧ـ لما ظهر في برامج الدعوة والتربية من قلة الاعتناء بهذا الجانب العظيم من التربية وأثره في الاستقامة والدعوة والنصيحة والجهاد ، فالمتأمل اليوم في مناهج التربية والتعليم يلاحظ القصور في هذا الجانب ، وإذا وُجد الاهتمام فهو قليل بالنسبة إلى الجوانب الأخرى .

بل وصل الأمر عند بعض الموجهين في الدعوة إلى الاستهانة بهذا الجانب العظيم ، وصرنا نسمع من يقلل من أهمية الكتاب أو المحاضرة أو الدرس الذي يركز على جانب التذكير والوعظ ، فيقول : هذا كتاب وعظي ، أو هذا درس يغلب عليه الوعظ ، أو هذا مقال عاطفي . . . إلخ .

والمتأمل في كتاب الله عزوجل وأحاديث الرسول ﷺ يرى جانب الوعظ والربط بالآخرة والثواب والعقاب واضحاً فيهما أشد الوضوح .

* * *

تفسير (النبأ العظيم) وما في معناه

ورد ذكر النبأ العظيم في القرآن مرتين : مرة في سورة ص، في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

والأخرى في سورة النبأ في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ: ١ - ٣] .

فما هو تفسير النبأ العظيم في الآيتين ؟

يقول القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير آية (ص) :

« أي قل لهم يا محمد : ﴿ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر ؛ فلا ينبغي أن يُستخف به . قال معناه قتادة . نظيره قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني القرآن الذي أنبئكم به خبر جليل . وقيل : عظيم المنفعة ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ »[1] اهـ.

قال الشيخ السعدي رحمه الله :

« قل لهم محذراً ومنهضاً لهم ومنذراً : هو نبأ عظيم . أي ما أنبأتكم به من البعث والنشور ، والجزاء على الأعمال ، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه ، ولا ينبغي إغفاله، ولكن ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ كأنه ليس

---

(١) تفسير القرطبي عند الآيتين (٦٧، ٦٨) من سورة ص .

أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب »[١] اهـ.

مما سبق يتبين أن المراد بالنبأ العظيم: إما أن يكون نبأ الآخرة وما فيها، أو نبأ هذا القرآن العظيم وما فيه. والذي يظهر أن لا تنافي بين القولين، فمن أعظم الأنباء التي اشتمل عليها القرآن أنباء الآخرة وأحوالها، وأنباء ما أعده سبحانه لأهل توحيده وعبادته من الجنة والنعيم، وما أعده لأهل الشرك والجحود من العذاب والجحيم[٢].

أما آية النبأ فالقول الراجح فيها: أنها في نبأ اليوم الآخر. يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

« يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي عن أي شيء يتساءلون من أمر القيامة وهو النبأ العظيم؟ يعني الخبر الهائل المفظع الباهر. قال قتادة وابن زيد: النبأ العظيم: البعث بعد الموت. وقال مجاهد: هو القرآن.

والأظهر الأول؛ لقوله: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يعني الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر »[٣] اهـ.

ما ورد في معنى النبأ العظيم من الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

---

(١) تفسير السعدي عند الآيتين (٦٧، ٦٨) من سورة ص.

(٢) انظر تفسير ابن عطية عند هذه الآية.

(٣) تفسير ابن كثير عند الآيات (١ـ٣) من سورة النبأ.

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية :

«أي : أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر ، في يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أُدخل ناراً حامية ؟ وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : يقومون حفاة عراة غرلاً ، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ، ويغشى من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه .

قال الإمام مالك : عن نافع ، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « **يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه** » رواه البخاري »[١] اهـ[٢] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ [الحج : ١ ، ٢] .

روى البخاري رحمه الله تعالى بسنده الرواية بهذا الإسناد مختصرة عن أبي سعيد الخدري ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادي بصوت : إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثاً إلى النار . قال : يارب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف** ـ أراه قال ـ : **تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)** » .

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٣٨)، وفي كتاب الرقاق (٦٥٣١) .

(٢) تفسير ابن كثير عند الآيات (٤ ـ ٦) من سورة المطففين .

فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، قال النبي ﷺ : **«من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة »** ؛ فكبرنا ، ثم قال : **«ثلث أهل الجنة »** ؛ فكبرنا ، ثم قال : **« شطر أهل الجنة »** . فكبرنا . . . الحديث[1] .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « إن الله ينادي الناس جميعاً إلى تقوى الله ، ويخوفهم من زلزلة الساعة ، ويصف الهول المصاحب لها ، وهو هول عنيف مرهوب ، إنه مشهد عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف له القلوب ، يدعوهم القرآن إلى الخوف من الله ، ويخوفهم ذلك اليوم العصيب ، مشهد الزلزلة وهو شيء عظيم ، فإذا الرهبة تشتد من الهول ، إذاً هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، تنظر ولا ترى ، تتحرك ولا تعي . وبكل حامل تُسقط حملها للهول المروع الذي ينتابها ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة .

مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة بينما الخيال يتملاه ، والهول شاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية ، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن - وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي - والحوامل الملقيات

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) .

حـــملهن ، وبالناس سكارى ومـــا هم بسكارى ، ولكن عـــذاب الله شديد»[١] اهـ.

٣ـ قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : « أي مشهد يوم القيامة ، الذي يشهده الأولون والآخرون ، أهل السماوات وأهل الأرض ، الخالق والمخلوق ، الممتلئ بالزلازل والأهوال المشتمل على الجزاء بالأعمال . فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون ، وما كانوا يكتمون »[٢] اهـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم ، بهذا التنكير والتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار ، فما أعجب حالهم !! لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة ، وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ، ولإسماعهم ما يكرهون ، وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم »[٣] اهـ.

* * *

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن (١٦٢/ ١٦٣).
(٢) تفسير السعدي عند الآية ٣٧ من سورة مريم .
(٣) اليوم الآخر في ظلال القرآن (٣٠١).

بعض مشاهد النبأ العظيم

لقد ورد في القرآن الكريم عدة أوصاف ومشاهد لنبأ الآخرة العظيم حريٌّ بالمسلم الموقن بالرجوع إلى الله عز وجل أن يقف طويلاً عندها ، عَلَّ القلوب أن ترق وتنيب ، وعلَّ الجوارح أن تنقاد لربها بالعمل الصالح ؛ حتى تحصل لها رحمة الله عز وجل التي ينجي الله بها من شاء من عباده من شر ذلك اليوم ومشاهده العظيمة . ومن أوصاف هذا اليوم أنه :

١ـ يوم الحسرة :

قال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [مريم: ٣٩].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « الإنذار هو : الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب ، والإخبار بصفاته ، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد ، يوم الحسرة حين يقضى الأمر ، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد ، ويسألون عن أعمالهم ، فمن آمن بالله ، واتبع رسله ، سعد سعادة لا يشقى بعدها . ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقِيَ شقاءً لا يسعد بعده ، وخسر نفسه وأهله ، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب ، وتتصدع منها الأفئدة ، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته ، واستحقاق سخطه والنار ، على وجه لا يتمكن الرجوع ، ليستأنف العمل ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا ؟!!

فهذا قدامهم ، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم ، ولو خطر ، فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة ، وشملتهم السكرة ، فهم لا يؤمنون بالله ولا يتبعون رسله ، وقد ألهتهم دنياهم ، وحالت بينهم وبين الإيمان ، شهواتهم المنقضية الفانية ، فالدنيا وما فيها ، من أولها إلى آخرها ، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها ، وسيرث الله الأرض ومن عليها ، ويرجعهم إليه ، فيجازيهم بما عملوا فيها ، وما خسروا فيها أو ربحوا ، فمن عمل خيراً ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه »[1] اهـ.

وروى البخاري في التفسير باب : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، ثم يقال : يا أهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت** ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ » متفق عليه[2] .

وقد ورد ذكر (الحسرة) والحسرات في أكثر من آية في كتاب الله عز وجل منها :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ

(١) تفسير السعدي عند الآية (٣٩) من سورة مريم .

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩) .

بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

[البقرة: ١٦٧]

والحاصل مما سبق أن من أخبار النبأ العظيم أنه يوم الحسرات والندامات والتأسفات، ولكن حيث لا ينفع الندم، ولا تنفع الحسرة.

والأمور التي يتحسر عليها الإنسان يوم القيامة كثيرة وكثيرة، نذكر فيما يلي بعضها، لعلنا نحاسب أنفسنا عليها، ما دمنا في زمن المهلة وقبل أن يأتي يوم الحسرة؛ فمن ذلك:

* الحسرة على أعمال صالحة شابتها الشوائب، وكدرتها مبطلات الأعمال من: رياء أو عجب أو منة، حيث ضاعت في وقت يكون الإنسان فيه أشد ما يكون إلى الحسنة الواحدة.

* الحسرة على أعمال صالحة كان الاتكاء والأمل بعد الله عليها، ولكنها ذهبت عن أصحابها في ذلك اليوم العصيب إلى من ظُلموا في مال أو دم أو غير ذلك.

* الحسرة على التفريط في طاعة الله تعالى، وتصرّم العمر القصير في اللهث وراء الدنيا؛ حلالها وحرامها، والاغترار بزينتها، ونسيان الآخرة

وأهوالها ، والتفريط في وقاية النفس والأهل من عذاب جهنم ، والافتتان بالأموال والأولاد الذين يتحسر على فقدهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥] .

* حسرة الظالمين المفسدين في الأرض ، الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، حيث ستكون حسرتهم عظيمة ، حين يحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم ، وحين يسمعون قول الله عز وجل : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥] .

* حسرة الأتباع المقلدين لكل ناعق ، وبراءة المتبوع بالباطل من التابع ، والتابع من المتبوع ، وبراءة الشيطان ممن أطاعوه ، ولكن حيث لا ينفع الندم ولا تنفع الحسرات .

* الحسرة على أعمال لم يُتبع فيها الرسول ﷺ ، ويحسب أهلها أنهم يحسنون صنعاً ، ولكنها تضيع في وقت الحاجة إليها ؛ كحال أهل البدع والعبادات التي لم يأذن بها الله سبحانه .

* الحسرة على أموال جُمِعَتْ من وجوه الحرام المختلفة : كربا ورشوة وغصب ؛ فبقي وزرها على جامعها ، وصار أجرها لغيره ممن ورثها وعمل بطاعة الله.

كان من كلام إبراهيم التيمي ـ رحمه الله تعالى ـ أن يقول : « أي حسرة

أكبر على امرئ من أن يرى عبداً كان الله خوّله في الدنيا وهو عند الله أفضل منزلة منه يوم القيامة ؟! وأي حسرة على امرئ أكبر من أن يؤتيه الله مالاً في الدنيا فيرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله ، فيكون وزره عليه وأجره لغيره ؟! وأي حسرة على امرئ أكبر من أن يرى عبداً مكفوف البصر في الدنيا قد فتح الله له عن بصره وقد عمي هو . ثم يقول : إن من كان قبلكم كانوا يفرون من الدنيا وهي مقبلة عليهم ، ولهم من القدم ما لهم ، وإنكم تتبعونها وهي مدبرة عنكم ، ولكم من الأحداث ما لكم من الأحداث ما لكم ، فقيسوا أمركم وأمر القوم »[١] .

* حسرة المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، حين تبلى السرائر ، وحين يعرضون لا تخفى منهم خافية .

* وتبلغ الحسرة ذروتها حين ينادى أهل النار ، ليروا ذبح الموت ، فيوقنون عند ذلك بأبدية العذاب في النار ، حيث لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، كما ورد ذلك في حديث أبي سعيد الخدري والذي سبق ذكره آنفاً[٢] .

٢- يوم التلاق :

قال تعالى : ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** ﴾ [غافر : ١٥] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى يوم التلاق :

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٤٣١) .

(٢) انظر نص الحديث ص ١٧٨ .

« قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس : يوم التلاق : اسم من أسماء يوم القيامة، حذّر الله منه عباده . وقال قتادة والسُّدِّي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، والخالق والخلق . وقال ميمون بن مهران : يلتقي الظالم والمظلوم . وقد يقال : إن يوم التلاق يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر ، كما قاله آخرون»[1] اهـ.

ومما سبق من أقوال المفسرين في (يوم التلاق) يتبين أنه شامل لكل ما فيه معنى التلاقي والاجتماع ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ** ﴾ [التغابن: ٩]. وقوله عز وجل : ﴿ **وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾ [الشورى: ٧] .

يقول القرطبي رحمه الله تعالى : « ويوم الجمع : يوم يجمع الله الأولين والآخرين ، والإنس والجن ، وأهل السماء وأهل الأرض . وقيل : هو يوم يجمع الله بين العبد وعمله . وقيل : لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم»[2] اهـ.

ويقرب التصور لهذا الجمع العظيم ما جاء في قوله ﷺ : «**إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . . .**»[3] الحديث .

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية رقم (١٥) من سورة غافر .

(٢) تفسير القرطبي عند الآية (٧) من سورة الشورى .

(٣) رواه الترمذي / كتاب الزهد / باب (٩) (٧/ ٧٤) رقم ٢٣١٣ ، وقال : حسن غريب ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٨٢).

وهذا العدد العظيم من الملائكة الذين مُلِئَتْ بهم السماء الواسعة الأرجاء سيكونون من بين هذا الجمع العظيم .

وأود الوقوف عند معنى من معاني يوم التلاق أو يوم الجمع ، ألا وهو ما ذكره جمع من المفسرين في أن من ذلك التقاء الظالم بالمظلوم واجتماعهما بين يدي الحكم العدل ؛ للفصل بينهما ، وذلك لأذكّر نفسي وإخواني المسلمين بهذا الموقف العصيب ، الذي تُردُّ فيه المظالم إلى أهلها ، ويؤخذ للمظلوم من الظالم ، قال تعالى : ﴿ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** ﴾ [طه: ١١١] .

فلا يمكن لمن أيقن بيوم التلاق ويوم الجمع الأعظم أن يسفك دماء الناس، أو يأكل لحومهم وأموالهم بغير حق ، وهو يعلم أن الاستيفاء هناك، ليس بالدينار والدرهم ، وإنما بالحسنات والسيئات ، فليحذر الذين يظلمون الناس ؛ وخاصة من يظلم الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ليحذروا يوم التلاق في يوم الفصل ، وليطمئن المظلوم فلن يضيع عند الله شيء ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

٣- يوم الآزفة :

قال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ** ﴾ [غافر : ١٨] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معناها : « يوم الآزفة : اسم من أسماء يوم القيامة ، وسميت بذلك لاقترابها»[١] اهـ.

ويقول السعدي رحمه الله تعالى : « أي يوم القيامة التي قد أزفت

(١) تفسير الإمام ابن كثير عند الآية (١٨) من سورة غافر .

وقربت ، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها ، وزلازلها »[١] اهـ.

وقال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم: ٥٧ - ٦٢] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « أي اقتربت القريبة ، يعني يوم القيامة. وقال أبو حازم : قال رسول الله ﷺ : «**مثلي ومثل الساعة مثل رجل بعثه قومه طليعة ، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه : أُتيتم ! أُتيتم ! »** ثم يقول الرسول ﷺ : « **أنا ذلك** » ، وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان »[٢] اهـ.

وقال السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات : « ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ أي: قربت القيامة ، ودنا وقتها ، وبانت علاماتها.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي: إذا أتت القيامة ، وجاءهم العذاب الموعود به .

ثم توعد المنكرين لرسالة محمد ﷺ ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم ، فقال : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ ؟ أي : أفمن هذا الحديث ، الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه، تتعجبون وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة ، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة ؟ هذا من جهلهم ، وضلالهم ، وعنادهم. وإلا فهو الحديث ، الذي إذا حدث صدق ، وإذا قال قولاً فهو

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٨) من سورة غافر .

(٢) تفسير الإمام ابن كثير عند الآية (٥٧) من سورة النجم .

القول الفصل ، ليس بالهزل ، وهو القرآن العظيم ، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، الذي يزيد ذوي الإصلاح رأياً وعقلاً ، وتسديداً وثباتاً ، وإيقاناً ، وإيماناً بل الذي ينبغي العجب ، من عقل من تعجب منه ، وسفهه وضلاله .

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴾ أي : تستعجلون الضحك والاستهزاء به ، مع أنه الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس ، وتلين له القلوب ، وتبكي له العيون ؛ سماعاً لأمره ونهيه ، وإصغاءً لوعده ووعيده ، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة .

﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أي : غافلون ، لاهون عنه وعن تدبره ، وهذا من قلة عقولكم وزيف أديانكم ، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال ، لما كنتم بهذه المثابة ، التي يأنف منها أولو الألباب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً ، يدل على فضله وأنه سر العبادة ولبها ؛ فإن روحها الخشوع لله ، والخضوع له . والسجود أعظم حالة يخضع بها العبد ، فإنه يخضع قلبه وبدنه ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة ، موضع وطء الأقدام . ثم أمر بالعبادة عموماً ، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال والأقوال ، الظاهرة والباطنة»[1] اهـ.

ويصف لنا سيد قطب رحمه الله تعالى تجربة وقعت له وهو يسمع سورة النجم ، وكيف عاش معها ، وتأثر بها ، وخاصة الآيات الأخيرة منها ، فيقول :

« كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ القرآن من

(١) تفسير السعدي عند الآيات (٥٧ ـ ٦٢) من سورة النجم.

قريب ، يتلو سورة النجم ، فانقطع بيننا الحديث ؛ لنستمع وننصت للقران الكريم ،وكان صوت القارئ مؤثراً ، وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً ، وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه .

عشت مع قلب محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى، عشت معه وهو يشهد جبريل عليه السلام في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها . ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله، وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة عند سدرة المنتهى وجنة المأوى .

عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي ، وتحلق بي رؤاي ، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي ، وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها . . إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى .

ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة في بطون الأمهات ، وعلم الله يحيط بها ، وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة . . الغيب المحجوب لا يراه إلا الله ، والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء ، والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد ، والحشود الضاحكة والحشود الباكية ، وحشود الموتى، وحشود الأحياء، والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها ، وتبرز أسرارها ، فإذا هي ذكر أو أنثى ، والنشأة الأخرى ، ومصارع الغابرين ،والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى!

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة : ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ .

ثم جاءت الصيحة الأخيرة ، واهتز كياني أمام التبكيت الرعيب :

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ ؟

فلما سمعت : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقّاً إلى أوصالي . واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي ، لم أملك مقاومته ، فظل جسمي كله يختلج ، ولا أتمالك أن أثبته ، ولا أن أكفكف دموعاً هاتنة ، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة !

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح[1] ، وأن تعليله قريب ، إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة ، ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها ، ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت مني هذه الاستجابة . . وذلك سر القرآن . . فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة ؛ وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير ؛ فيكون منها ما يكون »[2] اهـ.

٤ـ يوم التناد :

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر : ٣٢، ٣٣] .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى : « ولما خوفهم العقوبات الدنيوية خوفهم العقوبات الأخروية ، فقال : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾

---

(١) يعني حادث سجود المشركين بعد قراءة الرسول ﷺ لسورة النجم . وحديث سجود المشركين مع المسلمين رواه البخاري في التفسير (٤٨٦٢)، (٤٨٦٣) .

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٢٠، ٣٤٢١) .

أي: يوم القيامة، حين ينادي أهلُ الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤ وما بعدها].

وحين ينادي أهلُ النار أهلَ الجنة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وحين ينادي أهل النار مالكاً: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

وحين يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. [القصص: ٦٤]

فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]»[1] اهـ.

والنداءات يوم القيامة كثيرة، يضاف إلى ما قاله الشيخ السعدي رحمه الله تعالى قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

---

(١) تفسير السعدي عند الآيتين (٣٢، ٣٣) من سورة غافر.

وقد سُمي هذا النبأ العظيم بيوم التناد ، وكأنه ممحض وخالص للنداءات لا شيء فيه سواها؛ حيث هي الغالبة على جوِّه البارزة فيه .

والموفق من عباد الله سبحانه من وفق في هذا اليوم العظيم (يوم التناد) إلى أن يكون من أهل الجنة الذين إن نادوا فإنهم مسرورون بندائهم لأهل النار بأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً ، وإن وجه إليهم النداء والسؤال بما أجابوا به المرسلين فإن نفوسهم تقرُّ بالجواب ؛ حيث الاتباع والاستسلام لما جاء به المرسلون .

والويل كل الويل، والحسرة كل الحسرة لأهل النار ، الذين إن نادَوا فبئس النداء وبئس الطلب ؛ حيث ينادون شركاءهم فلا يستجيبون لهم ، بل يكفرون بهم ، وينادون أقاربهم من أهل الجنة بشربة ماء، أو طعمة من رزق الجنة ، فلا يجدون إلا التبكيت والحرمان .

وإن نودوا ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فلا جواب لديهم ولا حجة ، إلا الخيبة والخسارة . وماذا عسى أن يقولوا؟ أيقولون: إنما أجبنا آباءنا وأحبارنا ورهباننا ومشايخنا ، ولم نلتفت إلى ما جاء به المرسلون؟ إنهم يعلمون أن لا فائدة في هذا الجواب ؛ بل فيه الحسرة والندامة ، فهو سبب خيبتهم وعذابهم؛ ولذلك عميت عليهم الأنباء ، كما أخبر الله ـ عز وجل ـ عن حالهم بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٥، ٦٦] .

فحري بمن أيقن بيوم التناد أن يستعد لذلك اليوم ، بإفراد الله عز وجل بالعبادة وتنقية القلب من جميع الشركاء من دون الله عز وجل ، وإفراد الرسول ﷺ بالمتابعة والانقياد لما جاء به ، حتى إذا جاء النداء العظيم يوم القيامة : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يكون الجواب حاضراً ، تقرُّ به العين ،

وتنعم به النفس ، أما من كانت إجابته لغير المرسلين : كشيخ أو طريقة أو حزب أو غير ذلك ، فيالها من حسرة وخسارة !! نعوذ بالله من ذلك .

٥- يوم التغابن :

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن : ٩]، قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية :

« يعني : اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً ، وينبئهم بما عملوا ، فحينئذ ، يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق ، ويُرفع أقوام إلى أعلى عليين ، في الغرف العاليات ، والمنازل المرتفعات ، المشتملة على جميع اللذات والشهوات ، ويُخفض أقوام إلى أسفل سافلين ، محل الهم والغم ، والحزن والعذاب الشديد.

وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم ، وأسلفوه أيام حياتهم ، ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾. أي : يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق ، ويغبن المؤمنون الفاسقين ، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون»[1] اهـ.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام . قال الزجاج : ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته .

فإن قيل : فأيُّ معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها ؟ قيل له : هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع ؛ كما قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

(١) تفسير السعدي عند الآية (٩) من سورة التغابن .

﴿الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦] ، ولما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى، وما ربحوا في تجارتهم ، بل خسروا ، ذكر أيضاً أنهم غُبنوا ؛ وذلك أن أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا ، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة ، وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً .

وقد فرق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين : فريقاً للجنة، وفريقاً للنار . ومنازل الكل موضوعة في الجنة والنار ، فقد يسبق الخذلان على العبد ـ كما بيناه في هذه السورة وغيرها ـ فيكون من أهل النار ، فيحصل الموفق على منزل المخذول ، ومنزل الموفق في النار للمخذول ، فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن . والأمثال موضوعة للبيان في حكم اللغة والقرآن ، وذلك كله مجموع من نشر الآثار ، وقد جاءت مفرَّقة في هذا الكتاب .

وقد يخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيناه في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ، والله أعلم .

وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعد ؛ ولكنه أراد التغابن الذي لا جبران لنهايته . وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف : رجل علم علماً فعلّمه وضيّعه هو ولم يعمل به فشقي به ، وعمل به من تعلمه منه فنجا به . ورجل اكتسب مالاً من وجوه يُسأل عنها وشح عليه ، وفرط في طاعة ربه بسببه ، ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ؛ فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه . ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي »[1] اهـ.

(١) تفسير القرطبي عند الآية (٩) من سورة التغابن .

ويتضح من أقوال المفسرين أن التغابن مفاعلة من الغبن ، وذلك بوجود طرفين متقابلين : أحدهما غابن رابح مغبوط، والآخر خاسر مغبون. ونحن نرى أثر الغبن على أهله في الدنيا ، وهي تجارات فانية ولها عوض ، فكيف بالغبن الأعظم والخسارة الكبرى عندما يرى أهلُ النار أهل الجنة وقد فازوا برضوان الله والنعيم المقيم ، فيالها من حسرة ، ويالها من خسارة ما أعظمها!!

والموقن بذلك اليوم يسعى جهده في وقت المهلة إلى أن يكون من الغابنين الفائزين مع أهل الحق وأنصار الحق المفلحين ، وينأى بنفسه عن مصير الخاسرين المغبونين من أهل الباطل الصادين عن الحق ، والمفسدين في الأرض.

وقد أنعم الله سبحانه علينا بنعم عظيمة ؛لنستعين بها على طاعة الله عزوجل ومرضاته ، ومن أعظمها نعمتا : الصحة والفراغ اللتان أخبر عنهما النبي ﷺ بقوله : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ**»[1] ، ويشرح الحديث الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى فيقول :

« قال ابن بطال: معنى الحديث: أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره: امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون . وأشار بقوله : « **كثير من الناس** » إلى أن الذي يوفق لذلك قليل .

---

(١) البخاري ك/ الرقاق (٦٤١٢).

وقال ابن الجوزي : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون. وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون ؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل ، والصحة تعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم ، كما قيل :

يسرُّ الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طولُ السلامة يفعلُ
يُردُّ الفتى بعد اعتدالٍ وصحة ينوءُ إذا رام القيام ويُحملُ

وقال الطيبي : ضرب النبى ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال ، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال ، فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن ، فالصحة والفراغ رأس المال ، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ، ومجاهدة النفس وعدو الدين ؛ ليربح خيري الدنيا والآخرة .

وقريب منه قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ الآيات ، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان ؛ لئلا يضيع رأس ماله مع الربح .

وقوله في الحديث : « **مغبون فيهما كثير من الناس** » كقوله تعالى : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ ، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في أول نعمة الله على العبد

فقيل : الإيمان، وقيل : الحياة ، وقيل : الصحة . والأول أولى فإنه نعمة مطلقة ، وأما الحياة والصحة فإنهما نعمة دنيوية ، ولا تكون نعمة حقيقة إلا إذا صاحبت الإيمان وحينئذ يغبن فيها كثير من الناس، أي يذهب ربحهم أو ينقص ، فمن استرسل مع نفسه الأمارة بالسوء، الخالدة إلى الراحة ، فترك المحافظة على الحدود والمواظبة على الطاعة ، فقد غبن ، وكذلك إذا كان فارغاً ؛ فإن المشغول قد يكون له معذرة بخلاف الفارغ ، فإنه يرتفع عنه المعذرة ، وتقوم عليه الحجة »[1] .

نسأله سبحانه أن يجعلنا يوم التغابن من الغابنين الفائزين ، كما نسأله عز وجل أن يجعلنا ممن طال عمره وحسن عمله ، وتزود من الفانية للباقية، ومن الممر إلى المستقر .

٦ـ تخاصم أهل النار :

وهذا التخاصم من أعظم المشاهد حسرة في يوم النبأ العظيم ، يوم يكفر الظالمون بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً .

وقد ورد في أكثر من موطن في القرآن الكريم وصف لتلك المشاهد المخزية ، ذكرها الله عز وجل في كتابه الكريم ، رحمة بعباده ما داموا في دار الدنيا وزمن المهلة ، حتى يتقوا هذه المواقف التي ملؤها الحسرة والندامة .

وقد ورد هذا التخاصم والتحاجج بين أهل النار في موطنين من مواطن يوم القيامة ، موطن قبل دخولهم النار ، وهم موقوفون بين يدي ربهم سبحانه ، وموقف بعد دخولها .

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٣٤).

فمن الآيات التي تصف لنا مشهد هذا التخاصم في نار جهنم :

* قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٧ ، ٤٨] .

* وقوله تعالى : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٥٩ - ٦٤] .

* وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] .

* وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] .

أما الآيات التي تصف تخاصم الظالمين عند ربهم قبل دخول النار ، فمنها :

* قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ [الصافات: ٢٧ - ٣٢] .

* قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

[سبأ: ٣١ - ٣٣]

وسواء كان تخاصم أهل النار في وقوفهم بين يدي ربهم، أم بعد دخولهم النار فهي حالة واحدة ، تصور ذلك الجو من الحسرة والخزي والندامة الكبرى، التي تخيم على الأتباع والمتبوعين ، على المستضعفين والمستكبرين، ويحسن أن نقف عند الآيات الأخيرة في سورة سبأ، وما توحي به من المعاني والعبر العظيمة، حتى تكتمل الفائدة .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآيات :

« لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لابد من وقوعه عند حلول أجله ، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم ، وأنك لو رأيت حالهم إذ وقفوا عند

ربهم ، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال ، لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً ، ورأيت كيف يتراجعون ، ويرجع بعضهم إلى بعض القول.

﴿ **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** ﴾ وهم الأتباع ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** ﴾ وهم القادة: ﴿ **لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** ﴾، ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان ، وزينتم لنا الكفران ، فتبعناكم على ذلك . ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم .

﴿ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** ﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم : ﴿ **أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم** ﴾ أي: بقوتنا وقهرنا إياكم؟! ﴿ **بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ** ﴾ أي : مختارين للإجرام ، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم ، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا** ﴾ أي : بل الذي دهانا منكم ، ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار؛ إذ تُحسِّنون لنا الكفر ، وتدعوننا إليه، وتقولون : إنه الحق ، وتقدحون في الحق، وتهجونه ، وتزعمون أنه الباطل ، فما زال مكركم بنا ، وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وفتنتمونا .

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا براءة بعضهم من بعض ، والندامة العظيمة، ولهذا قال : ﴿ **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ** ﴾ أي : زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم

مستحق له ، فندم كل منهم غاية الندم ، وتمنى أن لو كان على الحق ، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم ، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم »[1] اهـ.

ويعلق صاحب الظلال رحمه الله تعالى على هذه الآيات فيقول :

« لو ترى هؤلاء الظالمين وهم ﴿ مَوْقُوفُونَ ﴾ على غير إرادة منهم ولا اختيار ؛ إنما هم مذنبون بالوقوف انتظار الجزاء ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ . ربهم الذي يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه . ثم ها هم أولاء موقوفون عنده! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضاً، ويؤنب بعضهم بعضاً، ويلقي بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ . . فماذا يرجعون من القول ؟

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ . . فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة ، وما يتوقعون بعدها من البلاء ! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم؛ ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة ، كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام ، وبيع الحرية التي وهبها الله لهم ، والكرامة التي منحها الله إياهم ، والإدراك الذي أنعم به عليهم . أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة ، وواجهوا العذاب الأليم ، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين ! ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا ، فهم في البلاء سواء ، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا

(١) تفسير السعدي عند الآيات (٣١-٣٣) سورة سبأ .

البلاء ، وعندئذ يردون عليهم باستنكار ، ويجبهونهم بالسب الغليظ .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ فهو التخلي عن التبعة ، والإقرار بالهدى ، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ، ولا يأخذون منهم رأياً ، ولا يعتبرون لهم وجوداً ، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة ، أما اليوم - وأمام العذاب - فهم يسألونهم في إنكار : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ . . ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ . . من ذات أنفسكم ، لا تهتدون ، لأنكم مجرمون !

ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة ، ولكنهم في الآخرة ؛ حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة ، وتتفتح العيون المغلقة ، وتظهر الحقائق المستورة .

ومن ثم ، لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون ، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهاراً ولا ليلاً للصد عن الهدى ، وللتمكين للباطل ، ولتلبيس الحق ، وللأمر بالمنكر ، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ [1] إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ . .

---

(١) أي مكركم بنا في الليل والنهار . وكأن هذا المكر من المستكبرين المتسلطين مستمر في الليل والنهار ، لا يفتر ولا يتوقف . ولقد كانت صور المكر وقت نزول القرآن وما قبله تتخذ أشكالاً من الأشعار في المنتديات الجاهلية ، وتوجيه التهم الباطلة للرسول ﷺ ومن معه ، أو بصد الراغبين في سماع الحق وتفويته عليهم ، أو بإثارة نعرة الآباء والأجداد والتهويل من خطورة تركها . هذا جل ما عند الجاهلية الأولى من مكر الليل والنهار ، ولكن ماذا يساوي ذلك المكر الأول عند مكر الليل والنهار في زماننا الحاضر . إن مكر الليل والنهار =

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء ، ولاينجي المستكبرين ولا المستضعفين؛ فلكل جريمته وإثمه؛ المستكبرون عليهم وزرهم ، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم ، والمستضعفون عليهم وزرهم ، فهم مسئولون عن اتباعهم للطغاة ، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين؛ لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية ، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً، وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين؛ فاستحقوا العذاب جميعاً ، وأصابهم الكمد والحسرة ، وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهيأ »[1] اهـ.

وبعد هذا البيان من كتاب ربنا عز وجل هل آن لنا الأوان أن نعد لهذا الموقف العظيم عدته ؟ ونعمل جاهدين على الخلاص من صفات أهل هذه المواقف المخزية؟ وذلك بأن نخلص عبادتنا لله وحده ، ونجرد متابعتنا للرسول ﷺ ، ونحذر من كل ناعق ملبس خائن يمكر في الليل والنهار.

* أما آن الأوان للضعفة الأتباع أن يتبرأوا من متبوعيهم ورؤسائهم الظالمين المفسدين، وألا يكونوا أداة لهم في إفساد الناس، أو ظلمهم في دم أو مال أو عرض؛ طمعاً في جاه أو دنيا ؟! فهذا أوان الإنابة والبراءة من الظالمين

= لينطبق تمام الانطباق بلفظه ومعناه على المكر الموجود في أكثر ديار المسلمين اليوم ، والذي يعمل ليل نهار على مدار الأربع والعشرين ساعة ؛ فما يكاد المذياع يفتر من مكره حتى يأتي دور التلفاز ، وما يكاد التلفاز يفتر حتى يبدأ الفيديو ، ثم البث المباشر ، ثم المجلة الهابطة ، فالقصة الخليعة ، وهكذا دواليك. ولكن هل يعذر المسلم في فتح فكره وبيته لمكر الليل والنهار ؛ كلا والله لا يعذر ؛ لأن المفسدين المتسلطين سيردون عليهم يوم القيامة بقولهم : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ .

(١) في ظلال القرآن عند الآيات (٣١-٣٣) من سورة سبأ .

قبل أن يتبرأوا منهم في الآخرة بين يدي الله عز وجل أو وهم في النار يختصمون ؟ إن المتبوعين من الرؤساء الظالمين المفسدين لن يغنوا عن أتباعهم شيئاً يوم الهول العظيم ، بل كما مر بنا في سياق الآيات الكريمات ، فإنهم سينقلبون عليهم ويتبرأون منهم ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ولكن حيث لا تنفع البراءة هنالك .

* أما آن الأوان للمرأة المسكينة وخاصة في زماننا اليوم أن تنتبه لهذه المواقف ، فتتبرأ في دنياها اليوم من كل ناعق لها باسم الحرية والتمدن ومتابعة الأزياء والموضات؛ حتى لا تحق عليها الحسرة الكبرى عندما يتبرأ منها شياطين الإنس والجن ، الذين أضلوها ولم يغنوا عنها من عذاب الله من شيء؟ بل التبرؤ والتلاعن هو البارز في خصام التابعين من المتبوعين ، قال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] .

* أما آن لأتباع الأحزاب الأرضية من علمانية وقومية وبعثية ووطنية وغيرها ممن أعطوا ولاءهم لغير الله عز وجل وتنكروا لدينهم ، أو أتباع الطوائف الضالة المبتدعة ، أما آن لهم أن يفيقوا ويدركوا خطر هذه المتابعة ، وأنها ستنقلب يوم الحسرة الكبرى عداوة بينهم وبين متبوعيهم ، قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٢٥] .

* أما آن لمن أعطوا قيادهم لأهل الفساد وجلساء السوء يسوقونهم إلى مواطن الرذيلة ، ويفتحون قلوبهم لألاعيبهم ومكرهم أن ينتهوا ما داموا في

زمن المهلة ، ويحذروا من هؤلاء المفسدين ، الذين يزينون لهم فعل الشر ، ويزهدونهم في الخير ؟

أما علموا أن مودة هؤلاء وطاعتهم إن لم تنقطع في الدنيا فهي ولا شك منقطعة يوم القيامة ، بل ستنقلب إلى عداوة وبراءة، قال تعالى : ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

* ولو ذهبنا نتتبع أنواع الحوارات اليائسة وأطرافها المتعددة لطال بنا المقام؛ « ففي يوم القيامة يبحث كل إنسان عن أيَّة وسيلة مهما كانت ضعيفة واهية ، لعلها تصلح سبباً لنجاته من غضب الله تعالى وعذابه ؛ لذلك تكثر المناقشات والمحاورات بين الأبناء والآباء ، وبين الأزواج والزوجات ، وبين الحكام والمحكومين ، وبين الكبار المتسلطين والصغار التابعين لهم ، وبين الأغنياء الجبارين والفقراء المنافقين الذليلين ، كل يحاول إلقاء التبعة على غيره، ويتبرأ من تسلطه على غيره وتجبره ، ومن تزعمه بالأفكار المنحلة والمفاسد المضلة على الذين صفقوا له وهللوا لتفاهته وجرائمه »[1] ، ولكن حيث لا تنفع المحاورات ولا الخصومات ولا التنصل من التبعات .

* * *

(١) عن كتاب رحلة الخلود لحسن أيوب ص ١٩٤ .

واجب العقل نحو مشاهد النبأ العظيم

المعاد ثابت عقلاً ونقلاً ، والعقل الصحيح يقتضي وجود يوم يجازى فيه المحسن ، ويعاقب فيه المسيء . وإن من أعظم نعم الله سبحانه على الإنسان أن ركب فيه هذا العقل الذي يميز به الأشياء ، ويعرف به الضار من النافع ، ويهتدي به إلى خالقه وبارئه عز وجل ، وهو وسيلة الفهم عن الله سبحانه وعن رسوله ﷺ : يفقه بها الأحكام ، ويعمِّر الأرض، ويتمتع بما سخره الله عز وجل فيها ؛ولذلك كثر في كتاب الله تعالى ذكر أولي الألباب ، وأولي النهى ، وكثرت الآيات التي تمدح المتفكرين والذين يعقلون ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الرعد : ٣] ، و ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الرعد: ٤]. إلى غير ذلك من الآيات التي تمدح أصحاب العقول المهتدية لله عز وجل والمتدبرة لآلاء الله سبحانه وآياته.

والعقل الصحيح لا يعارض النقل الصريح ، ولايترتب عليه إلا الخير في العاجل والآجل ، ولكن الخشية من فساد العقل ومرضه أو صلفه وغروره.

وبما أن مشاهد النبأ العظيم كلها من الغيوب التي لم يعط العقل القوة على إدراكها، فليس لدى العقل أمور يعهدها تشابه مشاهد الآخرة ؛ حتى يقيس عليها ، ولذلك فليس أمام العقل إلا التسليم والإيمان بالغيب ، الذي أخبر عنه علام الغيوب .

وهذا هو أصل الإيمان الذي يميز المؤمن عن الكافر ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ**

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] .

ويجب على المسلم أن يحذر من الشيطان وخطراته ووساوسه في مثل هذه الأنباء الغيبية، وليعرف العقل قدره ودوره وليتحرز من غروره وصلفه.

وقد سُئل الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عن معنى قول الحكماء : «من لم يحترز من عقله بعقله هلك بعقله» ؟

فأجاب رحمه الله تعالى بقوله : «الجواب ، وبالله التوفيق : اعلم أن من أجَلِّ نعم الله على الآدمي أن أعطاه هذا العقل ، الذي يعقل به الأشياء ويوازن به بين المصالح والمضار ، ويرجح الراجح من المصلحتين ، ويرتكب الأخف من المفسدتين عند الاضطرار إلى ذلك ، وينظر به عواقب الأمور وما تثمره الأعمال الدينية والدنيوية من الثمرات النافعة أو ضدها ، ويلزم الإرادة بالعمل الصالح ، وباجتناب المضار. وأجل فوائد العقل وأحلى ثمراته: العقل عن الله وعن رسوله الأخبار والتصديق بها والتعبد لله تعالى بالاعتراف بها ، والأحكام الباطنة والظاهرة والتخلق بها ، والعمل الصالح، واجتناب المحرم .

فهذا أجلُّ ثمرات العقل ، فبه عُرف الله ، وعُرِفَتْ أحكامه ودينه ، وبه عُبدَ الله وأُطِيع، وهذا وجه توجيه الله خطابه في كتابه: لأولي الألباب ، لأَولي النهى ، لقوم يعقلون ، لقوم يعلمون .

فالعقل هو الدليل للعبد ، وهو المرشد له في جميع المطالب ، فما دام العقل عقلاً حقيقياً ، فلا يترتب عليه إلا كل خير ونفع عاجل وآجل.

وإنما يخشى الشر والضرر من أحد أمرين: إما قصوره وتقصيره ، وإما تعديه ومجاوزته الحد الذي حد له، إذا كان صاحبه في الحالين يعتقد استقامته وكماله ، فحينئذ عليه أن يحترز من كل حالة منهما بما يليق بها ويناسبها .

أما إذا كان الخلل من قصور العقل في معرفة العبد للحقائق ، بأن يظن معرفته بها وهو غالط في ذلك ، فمن هاهنا يقع الخطل والخلل ، فدواؤه في هذه الحال بتنقيح العقل وتصحيحه ، بأن يسلك الطريق الموصل لمعرفة تلك الحقيقة التي وقع الغلط فيها ،فإن من سلك الطرق المعوجة لم يهتد إلى الصواب ، وكذك من ضعف سلوكه للطرق النافعة لم يصل إلى الحقيقة ، ذاك يضل عنها ، وهذا يقصر عنها ، ولا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية ، فإن الأمور لا تتم إلا بسلوك طرقها وأبوابها مع الجد التام في تحصيلها ، فهذا من الأمور التي يتحرز منها بالمعرفة والاستقامة .

وأما الأمر الثاني : وهو مجاوزته للحد الذي حُدَّ له ، فهذا خطره كبير ؛ وذلك أن العقل من أكبر نعم الله وأجلها على العبد ، فعلى العبد أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى ، ويعترف لله بها ، ويستعين بها على ما خلق له ، وعلى ما ينفع ، فإذا نسي نعمة الله عليه ، وطغى بنفسه ، وأعجب بها وتاه بعقله ، سلب هذه النعمة في أمور كثيرة أعظمها أن يسلب إيمانه ، فإن كثيراً من الملحدين وأهل الحيرة والارتياب تاهوا بما أوتوا من ذكاء وفطنة حتى تكبروا على ماجاءت به الرسل ، واحتقروا الرسل ، وما جاءوا به ، وفرحوا بعلومهم ، وصارت عقولهم الذكية ـ غير الزكية ـ سبباً لهذا الانحراف العظيم ، والإلحاد المفسد للدنيا والآخرة ، فعقولهم التي طغوا بها أوصلتهم إلى هذه الهاوية السحيقة .

وقد يرى كثير من أهل المهارة بالأعمال الدنيوية والاختراعات الحديثة ، قدرته على ما يعجز عنه غيره ؛ فيتيه بعقله الفاسد ، ويتوهم أن معرفته بهذه الأمور المادية دليل على تفوقه في العلوم النافعة ، والأعمال النافعة ، ولا

يخضع عقله لعلوم الرسل والدين الحق ، فهذه مهالك هلك بها المعجبون بأنفسهم .

وعلى العبد أن يحترز من القدح في حكم الله وشرعه ، أو في قدره ، بأن يقيس حكمة الحكيم الحميد بأفعال القاصرين من العبيد؛ فيضل ويسيء ظنه بالله ، ودواء هذا أن يعلم أن الله حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات ، وفي كل ما شرعه من الشرائع ، وإن تتبع ما أوجده الله من الموجودات يجدها في غاية الحكمة ، ويجد آثار الإتقان وحسن الخلق والانتظام التام عليها ظاهرة لا تخفى إلا على من عمي قلبه ، وانقلبت عليه الحقائق .

وما خفي عليه من بعض الجزئيات التي لا يهتدي إلى معرفة الحكمة فيها؛ فليعلم العلم الكلي أن الله لا يخلق شيئاً عبثاً ، وأنه أحسن كل شيء خلقه ،وأتقن جميع ما صنعه ، وكذلك من نظر ما احتوى عليه شرعه العظيم من المحاسن والمصالح والمنافع التي لا يمكن إحصاء أجناسها فضلاً عن أنواعها وأفرادها ؛عرف بذلك أن الله كامل الحكمة .

وأضر الجهل على الإطلاق الجهل بحكمة الله ، وأشد أنواع الغرور القدح فيها ، وما جاء هذا الغرور إلا من إعجاب العبد الجاهل بعقله الفاسد ، فنسأل الله ألا يزيغ قلوبنا عن الهدى والرشاد ؛ إنه جواد كريم »[1] اهـ.

ويحسن أن نورد في هذا المقام كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الحذر من الخواطر التي لانفع للعبد فيها ، بل قد يكون فيها هلاكه وزيغه ، فيقول رحمه الله تعالى :

«واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر ، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر ، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة ، فتأخذها

(١) الفتاوى السعدية (٥٢ـ٥٥).

الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل ، فتستحكم فتصير عادة ، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها .

ومعلوم أنه لم يعط الإنسان إماتة الخواطر ، ولاالقوة على قطعها ، فإنها تهجم عليه هجوم النفس ، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها، ورضاه به ، ومساكنته له ، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ، ونفرته منه ، كما قال الصحابة : يا رسول الله ، إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حُممة أحب إليه من أن يتكلم به ، فقال: « **أوقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم ، قال : « **ذاك صريح الإيمان** »[1] .

وفي لفظ : « **الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**» ، وفيه قولان :

أحدهما : أن رده وكراهته صريح الإيمان .

والثاني : أن وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمان ، فإنه إنما ألقاه في النفس طلباً لمعارضة الإيمان وإزالته به .

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ، ولابُد لها من شيء تطحنه ، فإن وضع فيها حب طحنته ، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته ، فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَبِّ الذي يوضع في الرحى ، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط ، بل لابد لها من شيء يوضع فيها ، فمن الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره ، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً ونحو ذلك ، فإذا جاء

---

(١) رواه مسلم رقم (١٣٢) في الإيمان : باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها . والرواية الثانية رواها أبوداود رقم (٥١١٢) في الأدب ـ باب الوسوسة .

وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه »[١] .

مما سبق بيانه من النقولات يتبين لنا ما ينبغي للعقل السليم أن يسلك مع أمور الغيب التي زويت عنه ، ولم يعط القدرة على إدراكها ، ألا وهو التسليم والإيمان بكل ما جاء في كتاب الله عز وجل من الأنباء، وما ثبت عن الرسول ﷺ ، سواء أدركت العقول كنهه وحكمته ، أم لم تدرك .

فهذا هو شأن سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ؛ حيث يقدمون النقل على العقل ، وينتفعون من نعمة العقل التي أكرم الله عز وجل بها الإنسان في تدبر آياته، وزيادة الإيمان، والاستعداد لما وعد الله به عباده من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر بالعمل الصالح والتخفف من الدنيا، وما توعد الله به عبيده الظالمين فيبتعد عن أسبابه وما يقرب إليه .

ولما حكَّم المعتزلة وأضرابهم من أصحاب المدارس العقلية عقولهم، وقدموها على النص؛ إما بردّه أو تأويله؛ وقعوا في الضلال البعيد الذي أدى ببعضهم إلى الحيرة والشك والإلحاد ، عياذاً بالله ؛ وما ذاك إلا من غرورهم ورفعهم لعقولهم فوق منزلتها، وفتح الباب للوساوس الشيطانية والخواطر الرديئة لتلعب في عقولهم التي أوتيت ذكاءً ولم تؤت زكاءً . فالعبرة بزكاء العقول ووقوفها عند حدها واستخدامها فيما ينفع العبد في دنياه وأخراه .

أما أن يؤتى العبد ذكاء بدون زكاء فمثل هذا يكون عقله وبالاً عليه في الدنيا والآخرة. والعاقل الحق هو من عرف مولاه سبحانه وأحبه وعظمه في قلبه ولسانه وجوارحه ، واستعد لما أمامه من أنباء الآخرة بالعمل الصالح

(١) الفوائد : ص ٣٠٨.

النافع .

فهذا هو العاقل بحق ولو لم يؤت حظّاً من الذكاء . أما الأذكياء الذين سخروا ذكاءهم فيما لم يخلقوا له ، أو جاوزوا بذكائهم حدود عقولهم ، وفتحوها للخواطر والأفكار الرديئة الضارة ؛ فإنهم تاهوا ؛ فضلوا وأضلوا .

وقد وصف الله سبحانه في كتابه حال الطائفتين اللتين ضلت إحداهما فاتّبعت ما تشابه من كتاب الله عزوجل ، وهدى الله الأخرى إلى الحق ؛ فآمنت بكل ما جاء عن الله سبحانه ، وسألته أن يثبتها على الحق ولا يزيغها عنه ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٧ - ٩] .

* * *

الأحاديث والآثار الواردة في الخوف والتحذير من النبأ العظيم

ويتم في هذا المبحث إيراد بعض الأحاديث الصحيحة والآثار المروية عن بعض السلف ، والتي يظهر منها مدى خوف القوم وتحذيرهم من يوم القيامة وأنبائه العظيمة ، كما يظهر مدى الاستعداد له بالعمل الصالح وترك كل ما يلهي ويشغل عن تذكره والتزود له .

(أ) الأحاديث :

الحديث الأول :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما نزلت : ﴿ **وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي : **يا بني فهر ، يا بني عديّ** ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا ، فجلع الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغيرَ عليكم أكنتم مصدقيّ ؟** » قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال : « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** »[1] .

---

(١) رواه البخاري / ك التفسير (٤٧٧٠) . ومسلم بنحوه / ك الإيمان (٢٠٨) .

الحديث الثاني:

عن قبيصة بن المخارق، وزهير بن عمرو ، قالا : لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قال انطلق نبي الله ﷺ إلى رضمة[١] من جبل . فعلا أعلاها حجراً[٢]، ثم نادى: « **يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ[٣] أهله ، فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه**»[٤] .

الحديث الثالث :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أنزلت هذه الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً؛ فاجتمعوا فعمَّ وخص ، فقال: « **يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»[٥] .

---

(١) رضمة : الرضمة حجارة مجتمعة ليست بثابتة في الأرض كأنها منثورة .

(٢) فعلا أعلاها حجراً : أي فرقي في أرفعها .

(٣) يربأ : على وزن يقرأ ، معناه يحفظهم ويتطلع لهم . ويقال لفاعل ذلك : ربيئة، وهو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو . ولا يكون في الغالب إلا على جبل أوشرف أو شيء مرتفع لينظر إلى بعد .

(٤) رواه مسلم / ك الإيمان (٢٠٨) .

(٥) رواه مسلم بشرح النووي (٣/ ٨٠) ط ١٠ المطبعة المصرية ومكتبتها .

الحديث الرابع :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **مثلي كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش ، وهذه الدواب التي في النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ، ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، قال : فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار ؛ هلم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني ، تقحَّمون فيها** »[(١)] .

الحديث الخامس :

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً** »[(٢)] .

الحديث السادس :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخ فينفُخ**» فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم : « **قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا** »[(٣)] .

الحديث السابع :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً** » قلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء

---

(١) البخاري بنحوه في الرقاق (٦٤٨٣) ، ومسلم واللفظ له في الفضائل (٢٢٨٤) .

(٢) البخاري في الرقاق [(١١/ ٣٢٧) (٦٤٨٦) فتح] .

(٣) رواه الترمذي / ك صفة القيامة (٧/ ١٤٥) [٢٤٣٣] ، وقال : حديث حسن . وذكره الألباني في الصحيحة (١٠٧٩) من طرق .

جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ! قال : «**يا عائشة ، الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**»[١] .

الحديث الثامن :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ، فقال : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » . وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك »[٢] .

الحديث التاسع :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة**»[٣] .

(ب) الآثار عن الصحابة والتابعين :

١ ـ عن الضحاك قال : « رأى أبو بكر الصديق طيراً واقعاً على شجرة ، فقال : طوبى لك يا طير ! والله لوددت أني كنت مثلك ، تقع على الشجرة ، وتأكل من الثمر ، ثم تطير ، وليس عليك حساب ولا عذاب»[٤] .

٢ ـ عن سليمان بن يسار ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩) .

(٢) البخاري في الرقاق [(١١/ ٢٣٧) (٦٤١٦) فتح] .

(٣) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٢) ، وقال : حسن غريب ، وهو في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٣) .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٩) .

الوفاة ، قال له المغيرة بن شعبة : هنيئاً لك يا أمير المؤمنين الجنة ، فقال : يا ابن أم المغيرة وما يدريك ؟ والذي نفسي بيده لو كان لي ما بين المشرق إلى المغرب لافتديت به من هول المطلع[١] .

٣ ـ وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته ، ويقول : « لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير»[٢] .

٤ ـ عن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لضرار ابن ضمرة ؛ صف لي عليّاً ، فقال : أو تعفني يا أمير المؤمنين ، قال : بل تصفه لي ، قال : أو تعفني ، قال : لا أعفيك ، قال : أما إذ لابد ، فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، (أي ما غلظ أو ماكان بلا أدم) كان والله كأحدنا ؛ يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدينا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ، ولا نبتديه لعظمته ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لرأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مَثُل في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ

(١) وصايا العلماء للحافظ الربعي . ت مصطفى عبد القادر عطا ص ٤٧ .
(٢) الجواب الكافي ص ٥٩ .

السليم - يعني القريص - ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه وهو يقول : يا دنيا يا دنيا أبي تعرضت ، أم لي تشوقت ، هيهات هيهات ، غري غيري ، قد بتتك ثلاثًا ، لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

قال : فذرفت دموع معاوية رضي الله عنه ، فما يملكها ، وهو ينشفها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء . ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبِحَ ولدها في حجرها ، فلا ترقأ عبرتها ، ولا تسكن حسرتها[١] .

٥ - عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت ، قال : « لما حضرت عبادة بن الصامت الوفاة قال : أخرجوا فراشي إلى الصحن - يعني إلى الدار - ثم اجمعوا لي مواليّ ، وخدمي ، وجيراني ، ومن كان يدخل عليَّ . فجمعوا له ، فقال : إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي علي من الدنيا ، وأول ليلة من الآخرة ، وإنه لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء ، وهو والذي نفس عبادة بيده ، القصاص يوم القيامة ، وأُحَرِّج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي ، فقالوا : بل كنت والداً ، وكنت مؤدباً . قال : وما قال لخادم قط سوءاً ، أغفرتم لي ما كان من ذلك ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم اشهد »[٢] .

٦ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « أنتم أكثر صياماً وأكثر صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا خيراً منكم ،

(١) غذاء الألباب للسفاريني (٢/ ٥٥٤).
(٢) وصايا العلماء ص ٦٥ .

قالوا : لِمَ يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة»[١] .

٧ ـ عن عبد الملك بن ميسرة ، عن النزال ، قال : قال ابن مسعود : «أغمي على حذيفة أول الليل ، ثم أفاق ، فقال : أي الليل هذا يا ابن مسعود؟ فقلت : السحر الأكبر الأعلى . فقال : عائذ بالله من جهنم ـ يقول ذلك مرتين أو ثلاثاً ـ ابتاعوا لي ثوبين ، ولا تغالوا فيهما ، فإن صاحبكم إنْ يُرضى عنه يكن خيراً منهما ، وإلا يسلبهما سلباً سريعاً »[٢] .

٨ ـ عن همام قال : « لما حضر أبا هريرة الموتُ جعل يبكي ، قيل له : ما يبكيك يا أبا هريرة ؟ قال : قلة الزاد وبُعد المفازة ، وعقبة هبوطها الجنة أو النار »[٣] .

٩ ـ عن قيس ، أن عبد الله بن رواحة بكى ؛ فبكت امرأته، فقال : ما يبكيك؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت ، فقال : « إني أنبئت أني وارد ، ولم أنبأ أني صادر»[٤] .

١٠ ـ عن الحسن ، أن رجلاً من الصدر الأول حضره الموت فجعل يبكي، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : « أما والله ما أبكي على شيء تركته بعدي إلا ثلاث خصال : ظمأ الهاجرة في يوم بعيد ما بين الطرفين، أو ليلة أبيت فيها أراوح بين جبهتي وقدمي ، أو غدوة وروحة في سبيل الله

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩٥).
(٢) وصايا العلماء ص ٧٤ .
(٣) وصايا العلماء ص ٨٢ .
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٥٧).

عز وجل»[١] .

١١ ـ عن ابن شماسة المهري ، قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار. فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بَشَّرَكَ رسول الله ﷺ بكذا ؟ أما بَشَّرَكَ رسول الله ﷺ بكذا ؟ قال : فأقبل بوجهه ، فقال : إن أفضل ما نُعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني قد كنت على أطباق ثلاث؛ لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منِّي ، ولا أحب إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه. قال : فقبضتُ يدي. قال : « **مالك يا عمرو؟** » قال: قلت : أردت أن أشترط. قال : « **تشترط بماذا ؟** » قلت : أن يغفر لي. قال : « **أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟** » وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أُطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا مت ، فلا تصحبني نائحة ولانارٌ ، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شناً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رُسُل ربي »[٢] .

---

(١) وصايا العلماء ص٩٣ .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ـ باب كون الإسلام يهدم ما قبله (١٢١).

١٢ ـ وأخرج ابن سعد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : «لوددت أني هذه السارية »[١] .

١٣ ـ وعن زياد بن ماهك قال : كان شداد بن أوس يقول : « إنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه ، ولن تروا من الشر إلا أسبابه ، الخير كله بحذافيره في الجنة ، والشر بحذافيره في النار ،وإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البر والفاجر ، والآخرة وعد صادق ، يحكم فيها ملك قاهر ، ولكلٍ بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا »[٢] .

١٤ ـ وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه ، لا يأتيه النوم فيقول : « اللهم إن النار أذهبت مني النوم ، فيقوم يصلي حتى يصبح »[٣] .

١٥ ـ عن عبد السلام مولى مسلمة بن عبد الملك ، قال : « بكى عمر بن عبد العزيز ؛ فبكت فاطمة ، فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء . فلما تجلَّى عنهم العَبْرُ ، قالت فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين! مَّ بكيت؟ قال : ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله: فريق في الجنة ،وفريق في السعير ، ثم صرخ وغُشي عليه »[٤] .

١٦ ـ عن محمد بن فروخ من ولد أبي نضرة ، قال : « زارني رياح القيسي ، فبكى صبيٌّ لنا من الليل ، فبكى رياح لبكائه حتى أصبح ،

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ١٢) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٧٠٩) .
(٣) الحلية (١/ ٢٦٤) .
(٤) الحلية (٥/ ٢٦٩).

فذاكرتُه يوماً ذلك ، فقال : ذكرت ببكائه أهل النار ، ليس لهم نصير ، ثم بكى»[١] .

١٧ ـ قال محمد بن واسع رحمه الله تعالى : « إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ، ألست تعجب من بكائه ؟ قيل : بلى ، قال : فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه »[٢] .

١٨ ـ قال الأعمش : « إن كنا لنشهد الجنازة ؛ فما ندري من نعزي من حزن القوم »[٣] .

١٩ ـ عن سرار أبي عبيدة ، قال : قالت لي امرأة عطاء السليمي : عاتب عطاء في كثرة البكاء ، فعاتبته ، فقال لي : « يا سرار ، كيف تعاتبني في شيء ليس هو إليَّ ؟! إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه ، تمثلت لي نفسي بهم ، فكيف بنفس تُغَلُّ يدُها إلى عنقها ، وتُسحب إلى النار ، ألا تصيح وتبكي ؟ وكيف لنفس تُعَذَّب ألا تبكي ؟ ويحك يا سرار! ما أقل غَنَاء البكاء عن أهله إن لم يرحمهم الله! قال : فسكتُّ عنه»[٤] .

والآثار في خوف السلف واستعدادهم للآخرة كثيرة جداً ، فأين نحن منهم ؟ نعم ؛ أين نحن من حال سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى مع أنهم يتميزون عنا بقوة الإيمان ، وكثرة الأعمال الصالحة ، وقلة الذنوب ، وشدة خشيتهم لله تعالى ، كما أن زمانهم يتميز عن زماننا بصلاح أهله ، وبكون

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ص ٢٠٠ .
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٣٧) .
(٣) الزهد لأحمد ص ٣٦٥ .
(٤) صفة الصفوة (٣/ ٣٢٧) .

الدنيا لم تنفتح فيه انفتاحها علينا اليوم .

فاللائق بنا والحالة هذه أن نكون أشد خوفاً منهم ، وأكثر حرصاً ، وأشد حذراً من الدنيا ، التي أخذت زخرفها وازينت . ولكن إلى الله نشكو حالنا ، ونسأله سبحانه أن يوقظنا من غفلتنا ، وأن يرزقنا الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور ؛ فالعاقل بحق ، والذي يحب نفسه بحق هو الذي يحاسب نفسه ، ويحقرها ويسعى لفكاكها من عذاب الله عز وجل .

عن سفيان بن عيينة ، قال : « كان الرجل من السلف يلقى الأخ من إخوانه ، فيقول : يا هذا ، اتق الله ، وإن استطعت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل ، فقال له رجل يوماً : وهل يسيء الإنسان إلى من يحب ؟ قال : نعم ، نفسك أعز الأنفس عليك ، فإذا عصيت فقد أسأت إلى نفسك »(١) .

« لقد عمل القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عملها في تربية الجماعة المسلمة ؛ حتى أتت بالعجب العجاب ! وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع ، كما لم يتمثل قط في مجموعة بشرية ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلاً ، وكانت الآخرة في حسه واقعاً ، فالآخرة كانت حقيقة يعيشها لا وعداً بعيداً »(٢) .

ويصف لنا الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى جانباً من حياة السلف من الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين لعلنا نقتدي بهم ، ونحقر حالنا عندهم ، وإن عجزنا عن اللحوق بهم فلا أقل من المحبة الصادقة لهم ، لعل الله سبحانه أن يحشرنا في زمرتهم . قال رحمه الله تعالى (باختصار) :

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ، تحقيق : عبد الله الشرقاوي ص ٨٨ .

(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ١٨٧ .

« أما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله ، وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه ، فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة ، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله ، فإذا أدّى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس ، فيركع الضحى ، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب . فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد ، فأدى فريضته كما أمر ، مكملاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب ، فينصرف من الصلاة ، وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثاراً تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه ، ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها ، قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر ، وحببت إليه لقاء الله ، ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله ، فهو مغموم مهموم كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة ، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه ، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة .

هذا وهم في ذلك كله مراعون لحفظ السنن ، لا يخلّون منها بشيء ما أمكنهم ، فيقصدون من الوضوء أكمله ، ومن الوقت أوله ، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره ، ويأتون بعد الفريضة الأذكار المشروعة ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه .

هذا دأبهم في كل فريضة ، فإذا كان قبل غروب الشمس توفروا على أذكار المساء الواردة في السنة نظير أذكار الصباح الواردة في أول النهار لا

يخلون بها أبداً ، فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التي قسمها بين عباده ، فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة ، وهي كثيرة تبلغ نحواً من أربعين ، فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله ، فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله .

فإذا استيقظ عاد إلى عادته الأولى ، ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى ، وتشييع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، والمعاونة لهم بالجاه والبدن ، والنفس والمال ، وزيارتهم وتفقدهم ، وقائم بحقوق أهله وعياله ، فهو متنقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر ، فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار ، ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره ، فهذا وظيفته دائماً .

وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به ، بل ما شممنا له رائحة ، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم ، والعلم بها وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة :

* منها : ألا يزال المتخلف المسكين مزرياً على نفسه ذامّاً لها .

* ومنها : ألا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالى ذليلاً له حقيراً ، يشهد منازل السابقين ، وهو في زمرة المنقطعين ، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين .

* ومنها : أنه عساه أن تنهض همته يوماً إلى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد .

* ومنها: أنه لعله أن يصدق في الرغبة واللجأ إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم فيصادف ساعة إجابة، لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه.

* ومنها: أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة، ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم تشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله فليبشر بالخير، فقد أهل له، فليقل لنفسه: يا نفس قد حصل لك شطر السعادة فاحرصي على الشطر الآخر؛ فإن السعادة في العلم بهذا الشأن والعمل به، فقد قطعت نصف المسافة، فهلا تقطعين باقيها؛ فتفوزين فوزاً عظيماً.

* ومنها: أن العلم بكل حال خير من الجهل، فإذا كان اثنان: أحدهما عالم بهذا الشأن غير موصوف به ولا قائم به، وآخر جاهل به غير متصف به فهو خلو من الأمرين، فلا ريب أن العالم به خير من الجاهل، وإن كان العالم المتّصف به خيراً منهما، فينبغي أن يُعطى كل ذي حق حقه، ويُنزل في مرتبته.

* ومنها: أنه إذا كان العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه، فلابد أن ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة، ولو بارقة، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه.

* ومنها: أنه لعله يجري منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده، والله لا يضيع مثقال ذرة، فعسى أن يُرحم بذلك العامل.

و بالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر، فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبطك عنه، وتقول: إنه لا ينفع، بل احذره، واستعن بالله، ولا

تعجز ، ولكن لا تغترّ، وفرّق بين العلم والحال.

وإياك أن تظن أنك بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله ، هيهات ما أظهر الفرق بين العالم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغنى بالفعل ، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل ، فاسمع الآن وصْف القوم ، وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل ، فإن وجدت من نفسك حركة وهمّة إلى التشبه بهم فاحمد الله وادخل ؛ فالطريق واضح والباب مفتوح .

إذا أعْجَبَتْكَ خصال امرئ ... فكُنْهُ تكنُ مثل ما يُعْجبُك

فليس على الجود والمَكْرُمات ... إذا جئتها حاجبٌ يحجُبُك

فنبأ القوم عجيب! وأمرهم خفي إلا على من له مشاركة مع القوم ، فإنه يطلع من حالهم على ما يريه إياه القدر المشترك .

وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته؛ فسرت المحبة في أجزائهم ، فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب.

قد أنساهم حبه ذكر غيره ، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه ، قد فنوا بحبه عن حب من سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه ، والتوكل عليه، والإنابة إليه ، والسكون إليه، والتذلل والانكسار بين يديه، عن تعلق ذلك منهم بغيره ، فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه ،واجتمع همه عليه متذكراً صفاته العلى وأسمائه الحسنى ، مشاهداً له في أسمائه وصفاته، وقد تجلت

على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه ، وأسجده بين يديه خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاته . فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء»[1] .

* * *

(١) طريق الهجرتين ص ١٩٣ ـ ١٩٧ .

من ثمرات اليقين بالنبأ العظيم

إن في اليقين باليوم الآخر وأنبائه العظيمة لآثاراً واضحة وثماراً طيبة ، لابد أن تظهر على قلب العبد ولسانه وجوارحه ، وعلى حياته كلها ، ولكن هذا اليقين وحده لا يكفي حتى ينضم إليه الصبر ومجاهدة الشهوات والعوائق؛ لأن الواحد منا مع يقينه باليوم الآخر وأهواله إلا أن ثمرات هذا اليقين ضعيفة ، فلابد إذن من سبب لهذا الضعف .

ويجلي هذه المسألة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، فيقول : « فإن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل ؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة ، ويبيت ساهيًا غافلاً ! ولا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبته؟!

قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق ؛ فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب :

أحدها : ضعف العلم ونقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت ، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ؛ ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيباً شهادة .

وقد روى أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال :«**ليس الخبَر**

كالمعاين»[١] .

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك تغاضي الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ،وتسويل النفس، وغرور الشيطان ، واستبطاء الوعد ، وطول الأمل، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا . وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال ، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب .

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة الدين ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] »[٢] اهـ.

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها حول ثمرات اليقين بالنبأ العظيم نذكر ما تيسر من هذه الثمرات ، والله ولي التوفيق :

١ـ الإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ:

إن الموقن بلقاء الله عز وجل يوم الفزع الأكبر لا تلقاه إلا حريصاً على أعماله ، خائفاً من كل ما يحبطها من أنواع الشرك الأكبر ، أو الشرك

(١) أحمد بنحوه (١/ ٢١٥، ٢٧١) ، والحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الأعراف (٢/ ٣٢١)، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وصحح إسناده أحمد شاكر (١٨٤٢) ، ولكنه بلفظ : « **ليس الخبر كالمعاينة** » .

(٢) الجواب الكافي ص٥٤ .

الأصغر ؛ حيث إن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال ، فتصير هباءً منثوراً، والشرك الأصغر يحبط العمل الذي حصل فيه هذا النوع من الشرك كيسير الرياء والعجب والمنِّ وطلب الجاه والشرف في الدنيا ، فكلما كان العبد موقناً بلقاء ربه كان منه الحرص الشديد على ألا تضيع منه أعماله الصالحة في موقف القيامة ، يوم أن يكون في أشد الأوقات حاجة إليها ؛ ولذلك فهو يجاهد نفسه بحماية أعماله في الدنيا بالإخلاص فيها لله تعالى ، لعل الله عز وجل أن ينفعه بها .

كما أن اليقين بالرجوع إلى الله عز وجل يجعل العبد في أعماله كلها متبعاً للرسول ﷺ غير مبتدع ولا مبدل ؛ لأن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً ، قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] .

٢ـ الحذر من الدنيا والزهد فيها والصبر على شدائدها وطمأنينة القلب وسلامته :

إذا أكثر العبد ذكر الآخرة وكانت منه دائماً على بال ، فإن الزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنتها سيحلان في القلب ، وحينئذ لا يكترث بزهرتها ، ومن ثم لا يحزن على فواتها ، ولا يمدن عينيه إلى من متعهم الله بها ليفتنهم فيها .

وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمار أخرى مباركة طيبة ؛ منها القناعة ، وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء ؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة ؛ إنها في نظره كالجحر الضيق ؛ فكيف يتنافس مع غيره أو يحسد غيره على جحر

ضيق زائل وهو يعيش في هذا الأفق الواسع الرحب، أفق الآخرة والحياة الأبدية فيها . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : « من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده »[١] .

كما يتولد أيضاً من هذا الشعور ، الراحة النفسية والسعادة القلبية وقوة الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات ، ذلك للرجاء فيما عند الله عز وجل من العوض والثواب ، وأنه مهما جاء من شدائد الدنيا فهي منقطعة ولها أجل ، فهو ينتظر الفرج ويرجو الثواب الذي لا ينقطع يوم الرجوع إلى الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] .

وما إن يفقد القلب هذه المعاني حتى يخيّم الهم والتعاسة عليه ، ومن هنا ينشأ القلق والانزعاج والهم والحزن ، أما ذاك الذي عرف الدنيا على حقيقتها وامتلأ قلبه بهم الآخرة وأنبائها ؛ فإن نفسه لا تذهب على الدنيا حسرات ، ولا تنقطع نفسه لهثاً في طلبها ، ولا يأكل قلبه الغل والحسد والتنافس فيها ، ولا يقل صبره ولا يجزع قلبه عند المحن والشدائد ، ومهما حرم في هذه الدنيا الفانية فهو يعلم أن لله عز وجل في ذلك حكمة وهو يرجو العوض يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ

(١) الزيادة على الزهد لابن المبارك ص ٣٧ .

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : « أي : لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه ؛ فيجتمعوا على الكفر لأجل المال . هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم»[1] اهـ.

فنظر المسلم الموقن بثواب الله عز وجل إلى الدنيا نظر المرتفع المستعلي عليها الراجي ثواب الله عز وجل ونعيمه المقيم يوم يلقاه ، وما شيء مثل هذا اليقين ، يريح العبد المؤمن ويُضفي على قلبه السعادة والسكينة والراحة والصبر وقوة الاحتمال .

يقول سيّد قطب رحمه الله : « إن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء ، ولا عوض عما يلقاه في الحياة .

وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء ، وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الآخر ، الذي لا تضيع فيه صغيرة ولا كبيرة ، والذي يُحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولا ريب في العذاب كما يعيش في الضلال . يعيش فيهما وهو حي على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذي لقيه في دنياه .

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده ؛

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية (٣٣) من سورة الزخرف .

بإخلاص القلب ، وتحري الحق ، والرغبة في الهدى »[1] اهـ.

كما أن الموقن بلقاء ربه عز وجل لا تلقاه عند النعماء إلا شاكراً لربه سالماً من الأشر والبطر والطغيان عند انفتاح الدنيا عليه ؛ لأنه يشعر بالابتلاء في السراء كابتلائه في الضراء ، فيشكر في السراء ، كما صبر على بلائه في الضراء .

٣ـ التزود بالأعمال الصالحة وأنواع القربات واجتناب المعاصي والمبادرة بالتوبة والاستغفار :

سبق أن مر بنا في مقدمة الحديث عن الثمرات أنه لا يمكن أن يوجد اليقين بالآخرة ، وما أعد الله فيها من النعيم لأوليائه ومن العذاب لأعدائه ، ثم مع ذلك يتخلف العمل الصالح الذي يثمر رضا الله عز وجل وجنته . ولو وجد تقصير في العمل الصالح أو جرأة على ما يسخط الله سبحانه فإنما يدل هذا إما على ضعف في اليقين والبصيرة، أو ضعف في الصبر والإرادة ، أما من رجا النعيم في الدار الآخرة فلابد أن يعد لذلك عدته . يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « ومما ينبغي أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه .

الثاني : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني ، والرجاء شيء

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ١٦ .

والأماني شيء آخر ؛ فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»[1] .

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة ؛ فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل . قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١] .

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : « **لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون من أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**»[2] .

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً .

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف

---

(١) مر ذكره وتخريجه وهو الحديث التاسع ص٢١٤ .

(٢) رواه أحمد (٦/ ١٥٩) ، والترمذي (كتاب التفسير) باب تفسير سورة المؤمنون ، الحديث رقم ٣١٧٥.

الأشقياء بالإساءة مع الأمن »[1] اهـ.

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : « فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات ؟ وقال المغرورون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله، المعطلين لأوامره ، الباغين المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله »[2] اهـ.

وقد وصف الله عز وجل الذين يحذرون الآخرة بأنهم من القانتين العابدين فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩] .

وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تربط بين فعل الواجبات وترك المحرمات وبين الإيمان باليوم الآخر، سواء ما كان منها بين العبد وربه أو بين العبد والخلق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ

(١) الجواب الكافي ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) الجواب الكافي ص ٥٦ .

﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ .

[المعارج: ١٩ - ٣٥]

ولما ذكر الله عز وجل أحكام الطلاق والرجعة قال بعدها: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢] .

فالحاصل أنه كلما كان العبد موقناً بيوم الحساب، متذكراً له دائماً ، شاعراً برقابة الله عز وجل له في السر والعلن ، كلما كان أكثر استعداداً لذلك اليوم بالعمل الصالح، مجتنباً لكل ما يسخط الله عز وجل، مبادراً إلى التوبة مما يقع فيه من الذنوب والعصيان.

والمتأمل لحال السلف الصالح ويقينهم بذلك اليوم يرى كثرة أعمالهم الصالحة واجتنابهم لكل ما يغضب الله عز وجل، ومع ذلك فهم يخافون أن تُردّ أعمالهم، ويحقرون أنفسهم مع ما عندهم من الاجتهاد في طاعة الله عز وجل وتجنبهم لمعاصيه ، وإذا وقعوا في ذنب بادروا إلى التوبة الصادقة والإنابة إلى الله عز وجل .

٤ـ الدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيله :

وهذا يدخل في الثمرة السابقة ؛ حيث إنه من أفضل القربات والأعمال الصالحة ، وقد أفردته هنا كثمرة مستقلة من ثمار اليقين باليوم الآخر ؛ وذلك لما يلي :

أ ـ فضل الجهاد والدعوة إلى الله سبحانه، وأثرهما في إنقاذ الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور ، ولذلك كان من أحب الأعمال إلى الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ

﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال : أي الناس أفضل؟ فقال : « **رجل يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه** » ، قال: ثم من؟ قال: « **مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ربه، ويدع الناس من شره**»[1] .

ب ـ وصف الرسول ﷺ للجهاد بأنه ذروة سنام الإسلام ، ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ معنى كون الجهاد ذروة سنام الإسلام، فيقول (باختصار):

« . . ولهذا كان الجهاد سنام العمل ، وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة ، ففيه سنام المحبة ، كما في قوله : ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾ [المائدة: ٥٤] . وفيه سنام التوكل وسنام الصبر ؛ فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى : ﴿**قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٨] .

وفي الجهاد أيضاً : حقيقة الزهد في الحياة الدنيا ، وفي الدار الدنيا . وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص ، فإن الكلام فيمن يجاهد في سبيل الله ، لا في

---

(١) البخاري / ك الجهاد (٢٧٨٦) . ومسلم/ ك الإمارة (١٨٨٨).

سبيل الرياسة ، ولا في سبيل المال ،ولا في سبيل الحمية ، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا . وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** ﴾ [التوبة : ١١١].

و (الجنة) : اسم للدار التي حوت كل نعيم ؛ أعلاه النظر إلى الله ، إلى ما دون ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، مما قد نعرفه وقد لانعرفه»[1] اهـ.

جـ ـ في الحديث عن الجهاد في سبيل الله عز وجل ومحاربة الفساد وتعبيد الناس لرب العالمين أكبر رد على الذين يرون أن التعلق باليوم الآخر ، والاستعداد له يعني اعتزال الناس وترك الدنيا لأهلها ، والاشتغال بالنفس وعيوبها ، وترك الحياة يأسن فيها أهلها . نعم ، هذا ما يراه بعض المتصوفة وأصحاب الفهم المنحرف لحقيقة الدنيا والآخرة .

إنها النظرة السلبية لحقيقة الآخرة ، وإلا فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهؤلاء هم سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، أزهد الناس في الدنيا ، وأكثرهم إنابة إلى الله وذكراً للآخرة؛ولكنهم حيث علمهم رسول الله ﷺ بقوله وفعله رأوا أن من أكبر الاستعداد للآخرة وأفضل الأعمال المقربة إلى الله عز وجل الجهاد في سبيله والدعوة إليه سبحانه ، وأن من اليقين بالآخرة الشفقة على الناس ورحمتهم ، وعدم تركهم لأهل الشر والطغيان يفسدون عليهم دينهم؛ فيشقون في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك شرع الجهاد في سبيل الله

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٤١ ـ ٤٤٣).

عز وجل ؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا .

« والذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون : إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ، وإلى إهمال هذه الحياة ، وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة . . الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ؛ فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة ـ كما هي في التصورات الكنسية ، وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم .

فالدنيا ـ في التصور الإسلامي ـ هي مزرعة الآخرة والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً ، كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى .

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا ـ مع ادعائهم الإسلام ـ فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه ؛ لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة ، فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ، وهو يعي حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبياً أو متخلفاً أو راضياً بالشر والفساد والطغيان ، إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى ، ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة ، ويجاهد

لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها ، وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة فيها ، ويكافح الشر والفساد والظلم محتملاً الأذى والتضحية حتى الشهادة ، وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة . . إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا ، وأن الدنيا صغيرة زهيدة ، ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى»[1] اهـ.

وصدق الله العظيم : ﴿ **لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾ .

[التوبة : ٤٤ ، ٤٥]

٥ـ اجتناب الظلم بشتى صوره :

وهذه الثمرة أيضاً تندرج تحت الثمرة الثالثة التي تمت الإشارة فيها إلى أثر اليقين باليوم الآخر في ترك معاصي الله عز وجل ، وكل ما نهى الله عنه ، ولكن إفرادها هنا في ثمرة مستقلة جاء لكثرة الظلم والشحناء بين المسلمين في عصرنا الحاضر .

وإنه لا شيء يمنع النفس من ظلم الغير في نفس أو مال أو عرض كاليقين بالرجوع إلى الله عز وجل وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإنصاف المظلوم ممن ظلمه ، فإذا تذكر العبد هذا الموقف العصيب الرهيب وأنه لا يضيع عند الله شيء كما قال تعالى : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ،

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ . [طه: ١١١]

إذا تذكر هذه المواقف واتعظ بهذه الآيات ، وأيقن بتحققها فلا شك سيمنعه ذلك من التهاون في حقوق الخلق والحذر من ظلمهم في دم أو مال أو عرض ، خاصة وأن حقوق العباد مبنية على المشاحة والحرص على استيفاء الحق من الخصم ، وبالذات في يوم الهول الأعظم الذي يتمنى العبد أن يكون له مظلمة عند أمه وأبيه وصاحبته وبنيه فضلاً عن غيرهم من الأباعد ، ومعلوم أن التقاضي هنالك ليس بالدينار والدرهم ، ولكن بالحسنات والسيئات .

فياليتنا نتذكر دائماً يوم الفصل العظيم ، يوم يفصل الحكم العدل بين الناس ، ويقضي بين الخصماء بحكمه وهو أحكم الحاكمين ، ليتنا لا نغفل عن هذا المشهد العظيم ؛ حتى لا يجور بعضنا على بعض ، ولا يأكل بعضنا لحوم بعض ، ولا نتكلم إلا بعلم وعدل ، إنه لا شيء يمنع من ذلك كله إلا الخوف من الله عز وجل ، وخوف الوقوف بين يديه ، واليقين الحق بأن ذلك كائن في يوم لا ريب فيه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٠ - ٤٢] ، وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [النمل: ٧٨] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١] .

يقول ميمون بن مهران : « يا ابن آدم خفف عن ظهرك ؛ فإن ظهرك لا يطيق كل الذي تحمله عليه من ظلم هذا ، وأكل مال هذا ، وشتم هذا . . كل هذا تحمله على ظهرك فخفف » .

٦ـ حصول الأمن والاستقرار والألفة بين الناس بالحكم بشريعة الله :

إن مجتمعاً يسود بين أهله الإيمان بالله عز وجل واليقين بالآخرة والجزاء والحساب لاشك أن ذلك سيثمر السلام والمحبة بين أهله ؛ لأن تعظيم الله سبحانه وتعظيم الوقوف بين يديه سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع الله عز وجل بديلاً ، ولا تقبل الاستسلام إلا لحكمه .

وهذا بدوره سيضفي الأمن والأمان على مثل هذه المجتمعات ؛ لأن أهلها يخافون الله ويخافون يوم الفصل والجزاء ، فلا تحاكم إلا لشرع الله ، ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام الفاضلة فلا خيانة ولا غش ولا ظلم . ولا يعني هذا ألا يوجد في المجتمعات المسلمة من يظلم أو يخون أو يغش ، فهذا لم يسلم منه عصر النبوة ولا الخلافة الراشدة ، لكن هذه المعاصي تبقى فردية ، يُؤدَّب أفرادها بحكم الله عز وجل وحدوده ، إذا لم يردعهم وازع الدين والخوف من الله .

وهذه بدورها ستكون محدودة وليست أصيلة ، أما عندما يقل الوازع الديني والخوف من الآخرة ، ويكون التحاكم إلى أهواء البشر وحكمهم فهذا هو البلاء العظيم والفساد الكبير ؛ حيث تداس القيم والحرمات ، ويأكل القوي الضعيف ، وبالتالي لا يأمن الناس على أديانهم ولا أنفسهم ولا أموالهم ولا أعراضهم ، وكفى بذلك سبباً في عدم الأمن والاستقرار وانتشار الخوف واختلال حياة الناس .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إنه لابد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو ، لا

شريعة العباد ، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم ـ كما يقيموا شعائرهم وعباداتهم ـ وفق شريعة الله في الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله »[١] .

ويقول أيضاً : « حقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله مع الإعراض عن الاحتكام إلى الله ، وتحكيمه في كل شأن من شئون الحياة ، فالدنيا ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة ، ووراءها الآخرة، والمتاع فيها هو المتاع ، فضلاً على أن المتاع فيها طويل كثير ، فهي خير ﴿ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ ، وفي الآخرة الجزاء الأوفى»[٢] .

٧ـ تقصير الأمل وحفظ الوقت :

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد طول الأمل ، والأماني الخادعة التي تجعل صاحبها في غفلة شديدة عن الآخرة ، واغترار بزينة الحياة الدنيا ، وتضييع ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها حتى يأتي الأجل الذي يقطع هذه الآمال ، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها ، وأضاعات من أوقاتها ، ولكن اليقين بالرجوع إلى الله عز وجل والتذكر الدائم لقصر الحياة الدنيا، وأبدية الآخرة وبقائها ـ هو العلاج النافع لطول الأمل وضياع الأوقات .

يقول ابن قدامة ـ رحمه الله تعالى ـ : « واعلم أن السبب في طول الأمل شيئان :

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ١٦١ .

(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ٦٩ .

أحدهما : حب الدنيا .

والثاني : الجهل .

أما حب الدنيا ؛ فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت ، الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة ، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ولا يقدّر قربه .

فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له ، سوَّف بذلك ووعد نفسه ، وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر قال : إلى أن يصير شيخاً ، وإن صار شيخاً ، قال : إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو يرجع من هذه السفرة ، فلا يزال يُسَوِّف ويؤخر ، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال ، وهكذا على التدريج ، يؤخر يوماً بعد يوم ، ويشتغل بشغل بعد شغل ، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته .

السبب الثاني: الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر ؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة ، وإن استبعد ذلك ، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن

الموت بعيداً ، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار ، ولا هو مقيد بسن مخصوص ، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره ؛ لعظم ذلك عنده واستعد للموت »[١] .

ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

« فإذا علم الإنسان - وإن بالغ في الجد - بأن الموت يقطعه عن العمل ، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته ، فإن كان له شيء من الدنيا ، وقف وقفاً ، وغرس غرساً ، وأجرى نهراً ، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له . أو أن يصنف كتاباً من العلم ، فإن تصنيفَ العالم ولدُه المخلّد ، وأن يكون عاملاً بالخير ، عالماً فيه ، فيُنقل من فعله ما يقتدي الغير به »[٢] اهـ.

وعن قيمة الوقت وتفاوت أهل اليقظة فيه ، يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى :

« سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه ، وفي استغراق جميع الأوقات في العبادة وعدمه ، منهم من يكون سيره مستقيماً في ليله ونهاره ، ومع ذلك يتخير من الأعمال أفضلها وأكملها ، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها ، إلا لمصلحة تقترن بالمفضول ، توجب أن يساوي العمل الفاضل ، ويزيد عليه ، وقد يكون المباح في حق هذا عبادة لكمال إخلاصه ، ونيته بذلك المباح أن يجم به نفسه ، ويتقوى به على الخير ، فتراه يتنقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به ، لا فرق عنده

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٦٧ ، ٣٦٨ .
(٢) صيد الخاطر ص ٢٠ .

بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة ، وبين العبادة المتعلقة بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم .

ولقد ذكرت في هذا المقام كلاماً لبعض الشيوخ لما رأى كثرة المجتمعين ببعض أصحابه قال مؤدباً لهم مقوماً : يا مناخ البطالين. يريد أنهم يقطعون عليه وقته عن الخير ، وكلاماً أيضاً للشيخ أبي الفرج بن الجوزي في سياق الخبر عن نفسه بحفظه الوقت، وأنه رأى مما لابد منه أن ينتابه أناس للزيارة ، وأنه لما رأى أن هذه الحال تقطع عليه وقته أعد للوقت الذي يجتمعون فيه إليه أشياء من أمور الخير لا تمنع من زيارتهم ، ولا تقطع عليه وقته ، مثل تقطيع الأوراق ، وصنع المداد ، وبري الأقلام التي لابد له منها لتصنيف العلوم النافعة ، وهي لا تمنع الحديث مع الناس والاستئناس بهم .

فقلت : سبحان مَن مَنَّ على هؤلاء السادة بحفظ أوقاتهم ، وبقوة العزيمة والنشاط على الخير ، ولكن كل كمال يقبل التكميل والرقي إلى حالة أرفع منه ، فلو أن هؤلاء الأجلاء الفضلاء جعلوا اجتماعهم مع الناس للزيارة والدعوات وغيرها من المجالس العادية فرصة يغتنمون فيها إرشاد من اجتمع بهم إلى الخير والبحث في العلوم النافعة ، والأخلاق الجميلة ، والتذكر لآلاء الله ونعمه ، ونحو ذلك من المواضيع المناسبة لذلك الوقت ، ولذلك الاجتماع؛ بحسب أحوال الناس وطبقاتهم ، وأنهم وطَّنُوا أنفسهم لهذا الأمر، وتوسلوا بالعادات إلى العبادات ، وبرغبتهم إلى الاجتماع بهم إلى انتهاز الفرصة في إرشادهم ، لحصلوا بذلك خيراً كثيراً ، وربما زادتهم هذه الاجتماعات مقامات عالية ، وأحوالاً سامية مع ما في ذلك من النفع العظيم للعباد ؛ لأنه ليس من شروط نفع العالم أن يرشد فقط المستعدِّين

لطلب العلم من المتعلمين ، بل يكون مستعداً لإرشاد الخلق أجمعين بحسب أحوالهم واستعدادهم ، وعلمهم وجهلهم ، وإقبالهم وإعراضهم ، وأن يعامل كل حالة بما يليق بها من الدعوة إلى الخير والتسبب لفعله ، وتعطيل الشر وتقليله ، وأن يستعين الله على ذلك .

فمن كانت هذه حاله ، لم يتبرم باجتماعه بالخلق مهما كان حريصاً على حفظ وقته ؛ لأن التبرم والتثاقل إنما هو للحالة التي يراها العبد ضرراً عليه ، ومفوتة لمصالحه ، والله الموفق وحده لا شريك له »[1] اهـ.

٨ـ سلامة التفكير وانضباط الموازين وسمو الأخلاق :

لا يستوي من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويوقن بيوم الحساب والجزاء ، ولا يغفل عنه ، لا يستوي هو ومن لا يؤمن بالآخرة أو يؤمن بها ولكنه في لهو وغفلة عنها ، إنهما لا يستويان أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة . أما في الآخرة فيوضحه قوله تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] .

وأما في الحياة الدنيا، فلا يلتقي أبداً من يعلم أن له غاية عظيمة في هذه الحياة ، وأن مرده إلى الله عز وجل في يوم الجزاء والحساب والنشور مع من لا يعلم من هذه الحياة الدنيا إلا ظاهرها ، وأنها كل شيء عنده ، وهو عن الآخرة من الغافلين .

إنهما لا يلتقيان لا في التفكير ولا في الميزان ، الذي توزن به الأشياء والأحداث ، ولا في الأحكام ، وبالتالي فبقدر ما تسمو أخلاق الأول وتعلو

---

(١) الفتاوى السعدية ص ٤٩ـ٥١ .

همته لسمو منهجه وميزانه بقدر ما تسفل وترذل أخلاق الآخر لسفالة تصوره وفساده ميزانه . قال تعالى في وصف أهل الدنيا : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

« ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ، ولا ينتظر ما وراءها ، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشئون ، فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال . . هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ،والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء »[1] .

إن الإيمان بالحياة الآخرة واليقين بما فيها نعمة عظيمة لا يدركها إلا من رأى وسمع أحوال الغافلين عن الدار الآخرة ؛ حيث فساد الموازين ، واختلال المواقف ، وهبوط الأخلاق ، ولا يمكن أن يتوقع من أهل الدنيا الغافلين عن الآخرة إلا مثل هذا ، فهم لا يرون إلا هذه الحياة الدنيا ، فهم يتنافسون وينطلقون في جميع أمورهم من هذا الجحر الضيق فإن وزنوا أمورهم فبميزان الدنيا يزنون ، وإن اتخذوا مواقفهم وبنوا أحكامهم، فهم من هذه الدنيا ينطلقون ، وإن كان لديهم شيء من الأخلاق فهي بقدر ما

(١) في ظلال القرآن عند الآية : (٧) من سورة الروم .

يحقق لهم مصالحهم وشهواتهم فحسب ، أما ذلك المؤمن بربه والموقن بلقائه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فيختلف كل الاختلاف عن أهل الدنيا وموازينهم ، فهو يزن الأمور ، ويتخذ المواقف ، ويبني الأحكام انطلاقاً من كونه عبداً لله عز وجل مستسلماً لشرعه ، واقفاً عند حدوده ، ناظراً إلى الدنيا كما وصفها الله عز وجل ، وحذَّر منها ، وأنها مزرعة الآخرة ، وأن التفاضل فيها بالتقوى والعمل الصالح ، لا بالمال والجاه ، وبالتالي فهو صاحب الأخلاق العالية ، التي تلازمه في كل زمان ومكان ؛ لإيمانه برقابة الله عز وجل له في جميع الأحوال ، ورجوعه إليه يوم القيامة ، فهل يستويان مثلاً ؟!

وأختم هذه الثمرة العظيمة بمثالين اثنين ، قصهما الله عز وجل علينا في كتابه الكريم يوضحان دور اليوم الآخر في سلامة الموازين .

المثال الأول: قصة قارون مع قومه :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ .

[القصص: ٧٦ – ٨٠]

يذكر الله سبحانه في هذه القصة صنفين من قوم قارون : الصنف الأول الذي يمثله قارون في عتوه واستكباره ، وركونه إلى الدنيا ، وغفلته عن الآخرة ، فكان ميزانه ميزان الدنيا الهابط السافل ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ فلم ينسب النعمة والعطاء إلى الله عز وجل ، بل جحد ذلك ، وخرج على قومه فرحاً بطراً . وهذا هو شأن أهل الدنيا وموازينهم .

كما يتبع قارون في هذه المواقف الهابطة أولئك الذين انخدعوا بزينته وتمنوا مكانه ، فقالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ؛ حيث جعلوا ميزان الحظ والنصيب هذه الدنيا الفانية .

أما الصنف الثاني : فيمثل أهل الآخرة الذين صحت موازينهم ، وربطوها بنظرتهم لهذه الدنيا وفنائها ، وبالآخرة ودوامها ، وأنها أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فقالوا لقارون مقولتهم الكريمة : ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ... الآيات ﴾ .

كما ظهر هذا الميزان النظيف في نصيحة أهل العلم من قوم قارون لمن اغتر بزينة قارون فقالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ .

المثال الثاني : قصة موسى عليه السلام مع سحرة فرعون :

وقد قص الله سبحانه هذه القصة في أكثر من سورة من القرآن ؛ في سورة الأعراف وطه والشعراء . والشاهد منها ما ذكره سبحانه عن موقف السحرة

قبل الإيمان بالله عز وجل والدار الآخرة، وموقفهم بعد إيمانهم بالله والدار الآخرة عندما ألقى موسى عليه السلام عصاه ورأوا الآيات الدالة على الإيمان بالله ورسوله، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه موقفين لسحرة فرعون.

الموقف الأول قبل إيمانهم بالله والدار الآخرة، فكانت موازينهم واهتماماتهم موازين الدنيا وزخرفها وفكرهم فيها وحدها. قال تعالى ـ عن حالتهم هذه ـ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]، فهمهم قبل الإيمان المنصب والأجر، هذا كل اهتماماتهم.

أما بعد وضوح الحق وإيمانهم بالله سبحانه والدار الآخرة، فكان لهم شأن آخر وميزان آخر، ألا وهو ميزان الآخرة، والطمع في مغفرة الله والثواب الجزيل في جنات النعيم. قال تعالى عن موقفهم من فرعون عندما هددهم بالقتل والصلب بعد سجودهم لله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

٩ـ الفوز برضا الله سبحانه وجنته والنجاة من سخطه والنار:

وهذه ثمرة الثمار، وغاية الغايات، ومسك الختام في مبحث الثمار، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

[آل عمران: ١٨٥]

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ :

« أي حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم ، والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ومفهوم الآية : أن من لم يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فإنه لم يفز ، بل قد شقي الشقاء الأبدي ، وابتلي بالعذاب السرمدي ، وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه ، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه»[1] اهـ.

اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد، أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام ، نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ونسألك ألا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، يا حي يا قيوم ، يا أرحم الراحمين .

* * *

(١) تفسير السعدي عند الآية رقم (١٨٥) من سورة آل عمران .

من الأسباب الجالبة لتذكر النبأ العظيم والاستعداد للآخرة

يكفي لتذكر النبأ العظيم وإنشاء همّ الآخرة في النفوس أن نتعرف على الثمار السابقة؛ ففيها الدافع القوي لمن وفقه الله عز وجل إلى الانتباه الدائم لرحلة الخلود الطويلة والتمهيد للمستقبل الأبدي السرمدي ، ومع ذلك فيحسن ذكر بعض الأسباب المعينة على تدارك زمن المهلة والانتباه من رقدة الغفلة ، فإذا انضم إلى ذلك صدق العزيمة وعلو الهمة نفعت بإذن الله عز وجل ، نسأله سبحانه أن ينفعنا بها . ومن هذه الأسباب ما يلي :

١ـ معرفة الله عز وجل وتوحيده والبصيرة في الدين :

كلما كان العبد أعلم بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته وبأحكامه وشريعته وبالطرق الموصلة إلى رضاه ، كلما كان أحرص على ما يقرب إلى الله سبحانه ، وكلما كان أكثر استعداداً للآخرة ، وكلما كان أعرف بما يرضي الله عز وجل فيفعله ، وما يصده عن الله والدار الآخرة فيتجنبه ويحذره ، وهذا من أعظم فوائد العلم الشرعي والبصيرة في الدين ، هذا إذا صاحب هذا العلم قوة في العمل والإرادة وعزيمة على ترجمة العلم إلى عمل .

وفي هذا الأمر يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ (باختصار) :

«السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ، ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . فبالقوة العلمية

يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك ، فيقصدها سائراً فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة ، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها؛ فلا يضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق، ومعاطبها وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ؛ فإن السير هو عمل المسافر .

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها ، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقي عليه الشطر الآخر ، وهو أن يضع عصاه على عاتقه ، ويشمر مسافراً في الطريق، قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى ، واستشعر القرب من المنزل ، فهانت عليه مشقة السفر. وكلما سكنت نفسه من كلال السير ، ومواصلة الشد والرحيل، وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول؛ فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمة ، فهو يقول : يا نفس أبشري ، فقد قرب المنزل ، ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول ، فيحال بينك وبين منازل الأحبة ، فإن صبرت وواصلت المسير وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله لا تنقطعي في المفازة؛ فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين.

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفاً في القوة العملية : يبصر الحقائق ، ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيهٌ ما لم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف ، وفارقهم في العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله، ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية ، وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقتضي هذه السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات ، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأول فساد إرادته ، وضعف عقله. وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم . . .

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ، ورُجي له النفوذ وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فإن القواطع كثيرة ، شأنها شديد، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد ، والوقت كما قيل : سيف فإن قطعته وإلا قطعك. فإذا كان السير ضعيفاً والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفاً والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة ـ فإنه جهد البلاء ودرك الشقاء

وشماتة الأعداء ، إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب ، فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع . والله ولي التوفيق»[١] اهـ .

٢ـ قراءة القرآن وتدبره والإكثار من ذكر الله تعالى وإدامته :

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨] .

فالقرآن الكريم أكبر المواعظ ، وأنفعها للقلب ، وذلك لمن تدبره ووعاه ، قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٧] .

والذي لا يتعظ بمواعظ القرآن ؛ فإنه مريض القلب ، ومن باب أولى ألا يتعظ بغيره . فالإكثار من قراءة القرآن وتدبر معانيه ومواعظه العظيمة من أكبر الأسباب الجالبة لإنشاء هَمِّ الآخرة والاستعداد لها ؛ لأن القرآن الكريم لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ذكر اليوم الآخر وما فيه من الأهوال العظيمة والحساب والجزاء والجنة والنار ، كما أنه يتضمن ذكر الدنيا وفنائها والتحذير منها .

والحاصل أن الحياة مع القرآن ومواعظه ووعده ووعيده يجعل قلب المؤمن في استعداد دائم متصل بهذا اليوم المشهود ، كما يجعله حذراً من الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل . وإن مما يعين على تدبر القرآن والتأثر بمواعظه أن يكون ذلك في صلاة ، وبالذات في صلاة الليل الآخر ، قال تعالى :

---

(١) طريق الهجرتين ص ١٧٤ـ١٧٦ .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل: ٦].

ومما يلحق بالقرآن ، كثرة ذكر الله تعالى في الصباح والمساء ، وفي أحوال اليوم والليلة لما في ذلك من تطرية للقلوب وعلاج لقسوتها ، فإذا رق القلب بذكر الله تعالى أثرت فيه مواعظ الآخرة وامتلأ بحب الله عز وجل وما أعد لأوليائه في الآخرة ، وعكس ذلك القلب القاسي البعيد عن ذكر الله عز وجل.

روى ابن أبي الدنيا : أن رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد ، أشكو إليك قسوة قلبي ، فقال : « ادنه من الذكر»[1] .

يضاف إلى ذلك ما تشتمل عليه بعض الأذكار من ذكر للآخرة والمصير إليها والاستعاذة فيها من شرورها ومن عذاب النار ، وما فيها من سؤال الجنة ونعيمها ؛ كل ذلك مما يذكر بالآخرة ، ويجعل العبد في منأى عن الغفلة والنسيان ما دام لسانه رطباً بذكر الله تعالى .

٣ـ الإكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والمرضى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكثروا من ذكر هاذم اللذات: الموت**»[2]،وعن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) الرقة والبكاء ص٧٢ ، وكتاب الزهد للإمام أحمد (٢/ ٢٣٣).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٠٨)، وقال : حسن غريب صحيح ، وصححه الألباني في المشكاة (١٦٠٧).

« كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ؛ فإنها تذكركم الموت »[١] . ففي الحديثين السابقين إشارة إلى أثر الموت وتذكره في الاستعداد للآخرة ، وعدم الركون إلى الدنيا ، وعدم الاغترار بلذاتها ومتعها ، فإنها زائلة عن قريب بهاذم اللذات ومفرق الجماعات .

ومما يذكر بالموت تشييع الجنائز وزيارة المقابر ، والسلام على الموتى ، والدعاء لهم ، ورؤية القبور المحفورة ، وتمثل الإنسان نفسه فيها ، وهو لا شك سيرقد فيها في يوم من الأيام .

كما أن في زيارة المرضى الذين أقعدهم المرض ، وقربهم من الآخرة مما يذكر أيضاً بالموت والاستعداد للآخرة بتدارك الصحة والعافية ، قبل أن يحال بين العبد وبين ذلك بالمرض أو الموت .

إنه لا شيء في الدنيا أفظع ولا أخطر من ساعة الاحتضار ؛ ولذلك فالحضور عند المحتضرين من أسباب رقة القلب وإنابته إلى الله والدار الآخرة.

ويصف ابن الجوزي ساعة الاحتضار فيقول :

« من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته ، فإنه ينتبه انتباهاً لا يوصف ، ويقلق قلقاً لا يحد ، ويتلهف على زمانه الماضي ، ويود لو تُرِكَ كي يتدارك ما فاته ، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت ، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف ، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى ، فالعاقل من مثَّل تلك الساعة

---

(١) أصله في مسلم / ك الجنائز (٩٧٦).

وعمل بمقتضى ذلك »[١] .

٤ـ محاسبة النفس في تقصيرها والتفكر في حقيقة الدنيا وزوالها:

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الحشر : ١٨] .

وقال سبحانه : ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وعن ثابت بن الحجاج قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم وزنوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ »[٢] .

إن من أقوى الأسباب المعينة ـ بإذن الله تعالى ـ على تدارك العمر وتذكر الآخرة والاستعداد لها محاسبة النفس ومجاهدتها ، وتدارك العمر القصير قبل حلول الأجل ، والنظر في سرعة زوال الدنيا وفنائها ، والتفكر في الآخرة وبقائها .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« من حين استقرت قدمه في هذه الدار ، فهو مسافر فيها إلى ربه ، ومدة

---

(١) صيد الخاطر ١٤٦ .

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ، ت: عبد الله الشرقاوي ص ٣٣ ، وقال المحقق: سند الأثر صحيح .

سفره هي عمره الذي كتب له ، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه ، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل ، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة ، حتى ينتهي السفر.

فالكيس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه ، فيهتم بقطعها سالماً غانماً ، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه ، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ، ويمتد أمله ، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل ، بل يعدّ عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ، فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل ، فطوعت له نفسه الانقياد إلى التزود ، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها فيحمد سعيه ، ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته ، فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سراه وينجاب عنه كراه ، فما أحسن ما يستقبل يومه ، وقد لاح صباحه واستبان »[1] .

ويوضح رحمه الله تعالى ما يعين على المحاسبة فيقول :

« ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً ، إذا صار الحساب إلى غيره ، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً ، ويعينه عليها أيضاً معرفته أن ربح هذه التجارة سُكنى الفردوس ، والنظر إلى وجه الرب سبحانه. وخسارتها دخول النار

(١) طريق الهجرتين ص١٧٦ .

والحجاب عن الرب تعالى ، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم ؛ فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها ، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة ، لاحظ لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز ، لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فإضاعة هذه الأنفاس ، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه : خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً ، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن »[1] اهـ.

ويتحدث الغزالي رحمه الله تعالى عن إطالة التفكير في الدنيا وفنائها وأثر ذلك في الاستعداد للآخرة ، فيقول :

« ولا يسلم الناس من أهوال يوم القيامة إلا من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عيناك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فما هذا من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته ، وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة ، فقال أحدهم : استعنت بالله ، اللهم سلِّم سلِّم ، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٨٠ ، ٨١) .

حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين ، وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه ! فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه ، فأنَّى يغني عنه ذلك من السبع ؟!

وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: لا إله إلا الله صادقاً ، ومعنى صدقه ألا يكون له مقصود سوى الله تعالى ، ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره خطر في نفسه »[1] .

ويبين الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أثر النظر والتفكير في إيثار الآخرة على الدنيا ، فيقول : « لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين :

النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها ، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها ، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف ، فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها ، وهمٍّ في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها ، فهذا أحد النظرين .

النظر الثاني: في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بُدَّ ،ودوامها وبقائها ، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا ، فهي كما قال سبحانه : ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٧].

فهي خيرات كاملة دائمة ، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة . فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقلُ إيثاره ، وزهد فيما يقتضي الزهد

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٦٥٢).

فيه»[١] .

ويبقى في هذه الفقرة إتحاف القارئ بنماذج من محاسبة السلف لأنفسهم، وأخرى من حثهم على محاسبة النفس وما تنطوي عليه من تقصير وتفريط .

أ ـ عن إسحاق بن إبراهيم أنه سمع سفيان بن عيينة يقول : « قال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمرها وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثّلت نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسي : أي نفسي ، أي شيء تريدين ؟ قالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، قال : قلت : فأنت في الأمنية فاعملي »[٢] .

ب ـ وقال ميمون بن مهران : « لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ؛ ولهذا قيل : النفس كالشريك الخوّان ، إن لم تحاسبه ذهب بمالك »[٣] .

جـ ـ وقال الحسن : « المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه ، فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك

---

(١) الفوائد ص١٧٧ .

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا . ت: عبد الله الشرقاوي ، وقال المحقق عن الأثر : رجاله ثقات ص ٣٩ .

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٧٩).

لمن حاجتي ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات . حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : ما أردت إلى هذا ؟ مالي ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً .

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ؛ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله »[1] .

د ـ وقال مالك بن دينار : « رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم زمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائداً »[2] .

هـ ـ وهذه صورة من صور المحاسبة في حوار مع النفس الأمارة بالسوء يصورها الشيخ السعدي رحمه الله تعالى ، فيقول :

« ويحك يا نفس! إذا أردت أن تعصي الله فلا تستعيني بنعمه على معاصيه، فإن المعصية لا تتأتى إلا من القوة والعافية ، ومَن الذي أعطاها ؟ ولا تتحرك إلا من توالي الشبع ، ومَن الذي يسر الأقوات وآتاها ؟ ولا تكون في العادة إلا بخلوة من الخلق ، ومَن الذي أسبل عليك حلمه وستره ؟ ولا تقع إلا بنظره إليك ، فإياك أن تستخفي باطلاعه وعلمه .

أما تعلمين يا نفس أن من جاهد نفسه عن المعاصي وألزمها الخير ، فقد

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٠٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٩) .

سعى في سعادتها وقد أفلح من زكاها ، وأن من أطاع نفسه على ما تريد من الشر ، فقد تسبب لهلاكها ودساها ؟!

ويحك يا نفس! كم بيني وبينك في المعاملة ، أنت تريدين هلاكي ، وأنا أسعى لك بالنجاة ، وأنت تحيلين عليَّ بكل طريق يوقع في المضار والشرور ، وأنا أجتهد لك في كل أمر مآله الخير والراحة والسرور ، فهلمي يا نفس إلى صلح شريف يحتفظ كلٌّ منا على ما لَهُ من المرادات والمقاصد ، ونتفق على أمر يحصل به للطرفين أصناف المصالح والفوائد .

دعيني يا نفس أمضي بإيماني متقدماً إلى الخيرات ، متجراً فيه لتحصيل المكاسب والبركات ، دعيني أتوسل بإيماني إلى من أعطاه أن يتمه بتمام الهداية ، وكمال الرحمة ، وأكمل ما نقص منه ، لعل الله أن يتم علي وعليك النعمة ، ولئن تركتيني وشأني لم تعترضي عليَّ بوجه من الوجوه ؛ لأعطينك كلَّ ما تطلبينه من المباحات ، وكل ما تؤمله النفوس وترجوه ، ولئن تركتيني وشأني لأوصلنك إلى خيرات ولذات طالما تمناها المتمنون ، وطالما مات بحسرتها قبل إدراكها الباطلون .

يا نفس ، أما تحبين أن تُنقلي من هذا الوصف الدنيء إلى أوصاف النفوس المطمئنة التي اطمأنت إلى ربها ، وإلى ذكره ، واطمأنت إلى عطائه ومنعه ، واطمأنت في جميع تدبيره ، واطمأنت إلى توحيده والإيمان به حتى سلاها عن كل المحبوبات ، واطمأنت إلى وعده حتى كانت هي الحاملة للعبد على الطاعات المزعجة له عن المعاصي والمخالفات . فلا يزال المؤمن مع نفسه في محاسبة ومنافرة حتى تنقاد لداعي الإيمان ، وتكون ممن يقال لها عند الانتقال من هذه الدار : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ**

رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] »[1] .

و ـ وأختم موضوع المحاسبة وأثره في اليقظة وتدارك العمر بمحاسبة ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ لنفسه ، فيقول :

« تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق ، فحاسبتها قبل أن تحاسب ، ووزنتها قبل أن توزن ، فرأيت اللطف الرباني ، من بدء الطفولة وإلى الآن ، أرى لطفاً بعد لطف ، وستراً على قبيح ، وعفواً عما يوجب عقوبة ، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان .

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً ، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت ، ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب ، حتى يظن فيَّ ما يظن في الفساق ، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي ، وقعت بتأويلات فاسدة ، فصرت إذا دعوت أقول : اللهم بحمدك وسترك عليَّ اغفر لي ، ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي ، ثم أنا أتقاضى منه مراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه ، ولا بشكر على نعمة ، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم ، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به .

وقد كنت أرجو مقامات الكبار فذهب العمر وما حصل المقصود ، فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نحت فأعجبتني نياحته فكتبتها هاهنا ، قال لنفسه : يا رعناء تقوِّمين الألفاظ ليقال : مناظر . وثمرة هذا أن يقال : يا مناظر كما يقال للمصارع الفاره . ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء ، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر ، ثم

(١) الفتاوى السعدية ص ٥٩ .

ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب ! هذا إن تأخر الأمر إلى موتك ، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموهوا له وصار الاسم له . والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نشرهم وهو العمل بالعلم ، والنظر الخالص لنفوسهم ، أف لنفسي ، وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة ، إن نُوظرت شَمَخَتْ ، وإن نُوصحتْ تَعَجْرفت ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم ، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف ، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة ، توفر في المخالطة عيوباً تبلى ، ولا تحتشم نظر الحق إليها . وإن انكسر لها غرض تضجرت ، فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم .

أف والله مني ، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها ، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب ، والله إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني ، كيف سترني وأنا أتهتك ، ويجمعني وأنا أتشتت ؟! وغداً يقال : مات الحبر العالم الصالح ، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني ، والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء ، ولأنوحن نوح الثاكلين إذ لا نائح لي ينوح عليَّ لهذه المصائب المكتومة ، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها ، وغطاها من علمها .

والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلاً بها : اللهم اغفر لي كذا بكذا ، والله ما التفت قط إلا وجدت منه ـ سبحانه ـ براً يكفيني ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء ، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها . هذا فعله معي وهو رب غني عني ، وهذا فعلي وأنا عبد فقير إليه ، ولا عذر لي ،

فأقول : ما دريت أو سهوت، والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً ، ونور قلبي بالفطنة ، حتى أن الغائبات ـ والمكتومات تنكشف لفهمي .

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا ، واحرماني لمقامات الرجال الفطناء ، ياحسرتى على ما فرطت في جنب الله ، وشماتة العدو بي، واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح عليَّ ، واخذلاني عند إقامة الحجة ، سخر والله مني الشيطان ، وأنا الفطن. اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار ، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار ، وقد جئتك بعد الخمسين ، وأنا من خَلَقِ المتاع ، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم ، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم ، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك ، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك ، فاغفر لي سالف فعلي»[1] اهـ.

٥ـ الاعتكاف وترك فضول الاختلاط :

ومما يعين على مجاهدة النفس ، وإنشاء همّ الآخرة فيها إحياء سنة الاعتكاف ، وخاصة في العشر الأواخر من رمضان ، ففي الاعتكاف تحصل للعبد منافع عظيمة منها :

أ ـ التفرغ للنفس ومحاسبتها ، وتفقد أخطائها ومثالبها ومعاصيها في ماضي حياتها ، وأثر ذلك في صدق التوبة وتطامن النفس وتواضعها ، وذلك عندما يعلم المحاسب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة .

ب ـ الشعور الشديد بالفاقة والفقر إلى الله عز وجل والضرورة القصوى

---

(١) صيد الخاطر ص ٤٦٤ .

لإعانته وإغاثته وتوفيقه ، والشعور بخطر الاعتماد على النفس والثقة المفرطة بها .

جـ- فراغ القلب في الاعتكاف من مشاغل الدنيا ومشاكلها ، وأثر ذلك في ملء القلب بذكر الله عز وجل والإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور .

د- الحياة مع كلام الله عز وجل والعيش مع كتابه العزيز ، وما يحوي من ذكر للآخرة وما فيها ، وذكر أنبيائه وأوليائه ، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم ، وبما أصابهم في سبيل الله عز وجل وكيف صبروا وصابروا مع ما في القرآن من ذكر الله عز وجل وأسمائه وصفاته ، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به آناء الليل وأطراف النهار .

هـ- الانقطاع عن الناس وقلة الاتصال بهم وبكلامهم ، وأثر ذلك في صفاء القلب وتقبله للمواعظ والزواجر مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها .

و- في الاعتكاف نقلة من حياة الترف مع الأهل والأولاد في المساكن المترفة والفرش الناعمة إلى حياة الاعتزال والمسكنة والفراش الخشن والأكل القليل ، وهذا بدوره يؤثر في حياة المعتكف ونظرته للدنيا ، مع ما يصاحب ذلك من النوم القليل ، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشيط النفس ؛ لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة .

ز- في الاعتكاف فرص للاستزادة من الصالحات كنوافل الصلاة ،

والذكر ، وقراءة القرآن ، لوجود التفرغ التام .

ح ـ في الاعتكاف وحبس النفس في مكان معين مجال لتربية النفس على الصبر والمصابرة واكتشاف قوة التحمل والصبر عند النفس ، وفي هذا ترويض للنفس وتوطئة لها على النقلات المفاجئة ـ نسأل الله عز وجل العافية والثبات ـ كما أن في ذلك تذكراً للصلحاء المبتلين الذين يمضون في معتقلاتهم الأشهر والسنوات فيتوجه بالدعاء لهم بالثبيت وسؤال الفرج لهم .

ط ـ كما أن في جلوس المعتكف في خلوته ورؤيته نفسه وحيداً بعد أن ينفضّ الناس ويرجعوا إلى بيوتهم ، إن في ذلك أثراً بالغاً في تذكر ذلك اليوم ، الذي يوضع فيه العبد في قبره وحيداً فريداً ، بعد أن يرجع عنه مشيعوه إلى أهليهم وبيوتهم ، وهذا له أثر في تذكر الموت والقبر ووحشته مما يعود بالفائدة على النفس بالاستعداد لهذا المصرع ، وسؤال الله عز وجل حسن الخاتمة ، وهذا كله يربي على الزهد في الدنيا ، وأنها ظل زائل ومتاع الغرور .

ي ـ في الانقطاع عن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشوق إليهم ؛ تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم ، وهذا بدوره ينعكس على بذل الجهد في إصلاح النفس والأهل ، لعل الله عز وجل أن يجمع الشمل في جنات النعيم ، التي لا ينفد نعيمها ولا يفترق أهلها .

ك ـ في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة يحصل فيها التفريط غالباً عند الكثير كأداء السنن الرواتب ، والصف الأول ، والطمأنينة في الصلاة ، وأداء الأذكار جميعها ؛ وذلك لعدم المشاغل والمشاكل التي تصرف المصلي

عن هذه الفضائل أو بعضها ، ولعلها أن تكون ديدنه بعد الخروج من المعتكف .

ل ـ في الاعتكاف يحصل محاسبة النفس في علاقتها بالخلق وحقوقهم ، بداية من الوالدين والأقارب والتقصير الحاصل نحوهم ، وكذلك حقوق الآخرين ، وماذا يحمل في القلب نحوهم ، هل هو النصح والمحبة أم الغش والحقد والحسد . وأكتفي بهذا القدر من منافع الاعتكاف ، ذكرته هنا بمناسبة الحديث عن محاسبة النفس .

٦ـ مصاحبة أهل الخير الذين تذكر رؤيتهم وكلامهم الآخرة ، والقراءة في سير الزاهدين من السلف :

قال الله عز وجل : ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨] .

هذه وصية الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأمته من بعده ، وما ذاك إلا لما يكون من أثر الصالحين الذين إذا رُءُوا ذُكرَ الله عز وجل وذُكِرَتْ الآخرة ، وهذا واقع ومجرب ، فما أن يعش المسلم بين أهل الخير ويستمع إلى مواعظهم ويرى سمتهم وأخلاقهم إلا ويتأثر بهم ، ويتأسى بفعالهم الطيبة ، وتبقى الآخرة في ذهنه دائماً ، والعكس من ذلك فيمن يصاحب أهل الدنيا الغارقين في لججها ، والغافلين عن النبأ العظيم ؛ حيث يظهر أثر هذه المصاحبة في قسوة القلب ونسيان الآخرة ، وبالتالي ضعف الاستعداد لها أو عدمه ، وإن هذا الأمر ليتأكد في زماننا هذا أكثر من أي وقت مضى ؛ وذلك لانفتاح الدنيا وانصباب الناس إليها والسعار المحموم

حول حطامها .

كل ذلك يؤكد ضرورة الحذر من أهلها وضرورة الالتصاق بأهل الصلاح والزهد والإصلاح ، والمعايشة المستمرة معهم ، والإكثار من سماع المواعظ والقراءة في كتب الوعظ وسير الصالحين والزاهدين من سلف هذه الأمة ، وألا يكتفي بالزيارات المتفرقة أو القراءة المتفرقة ، فإن فائدتها في هذا الزمان قليلة ؛ فالنفس إن لم يتوالَ عليها الوعظ والتذكير فإنها تلهو وتنسى مع الوقت إذا طال بعدها عن ذلك .

وهذا ما يوضحه ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كون المواعظ يزول أثرها بعد إلقائها ، ولا يستمر ذلك الأثر في النفس طويلاً ـ يقول رحمه الله تعالى ـ : « قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة ، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة ، فتدبرت السبب في ذلك فعرفته ، ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك ، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها ، لسببين :

أحدهما : أن المواعظ كالسياط ، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها .

والثاني : أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مُزاح العلة ، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا ، وأنصت بحضور قلبه ، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها ، وكيف يصح مع تلك الجواذب أن يبقى كما كان ؟! »[1] اهـ.

---

(١) صيد الخاطر ص ١١ .

٧ـ دعاء الله عز وجل واللجوء إليه والاستعانة به سبحانه :

إن الخير كله والتوفيق كله بيد الله عز وجل ، فما أفلح عبد ونجا من فتنة الدنيا وأناب إلى الآخرة إلا بتوفيق الله سبحانه وإعانته ، وعلى هذا فإن سؤال الله عز وجل والتضرع إليه سبحانه ، واللجوء إليه من أعظم الأسباب وأنفعها للعبد في توفيقه وفلاحه ، والعبد هالك ومخذول إن وُكل إلى نفسه أو إلى عمله الضعيف .

وهذا سيد العارفين والخائفين والراجين محمد ﷺ يقول : « **لن يُدخل الجنة أحداً عملُهُ** » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته** »[(١)] .

والأدعية الواردة في سؤال التوفيق إلى عمل الآخرة ونعيمها كثيرة ، منها قوله ﷺ : « **اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر** »[(٢)] ، ومنها قوله ﷺ : « **ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي** »[(٣)]، وقوله ﷺ : «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، اللهم أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين أبداً** »[(٤)] .

وهذه الأدعية على سبيل المثال لا الحصر ، والمقصود التنبيه إلى دعاء الله

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٤٦٧).

(٢) مسلم (٢٧٢٠) في الذكر والدعاء .

(٣) جزء من دعاء رواه الترمذي وحسنه (٣٤٩٧) كتاب الدعوات .

(٤) رواه الحاكم (١/ ٥٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠).

سبحانه واللجوء إليه في الوصول إلى رضاه وجنته ، والنجاة من سخطه والنار .

* * *

الخاتمة

نسأل الله عز وجل حسن الخاتمة ، ونسأله سبحانه أن يجعل خير أعمارنا آخرها ، وخير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم نلقاه . ثم إنه يطيب لي في ختام هذا الموضوع المهم أن أتوجه ببعض الكلمات إلى ثلاث فئات من الناس هي التي تتألف منها مجتمعات المسلمين اليوم ، ولا يكاد يخرج فرد من الأفراد عنها ، وهذه الفئات هي :

١ ـ الفئة المصلحة الداعية إلى الخير .

٢ ـ الفئة المفسدة الداعية إلى الشر .

٣ ـ الأتباع والمقلدة .

الفئة الأولى : الفئة المصلحة الداعية إلى الخير :

وهؤلاء هم أشراف المجتمع وأحسنهم قولاً وأثراً على الناس ، وأنبلهم غاية وأسماهم هدفاً ، وهؤلاء هم الذين عناهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ .

[فصلت : ٣٣]

وقوله تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ**

السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] .

وهم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله : « **ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**»[(١)] .

وإلى إخواني هؤلاء أوجه هذه الكلمات بمناسبة الحديث عن النبأ العظيم :

١ ـ اعلموا أنكم سادة المجتمعات وأشرافها بحق ، وكيف لا وأنتم تحملون أعظم رسالة وأنبل غاية ، ألا وهي تعبيد الناس لرب العالمين ، وإخراجهم بإذن الله تعالى من الظلمات إلى النور ، كيف لا وأنتم تضحون بأوقاتكم وأموالكم وراحتكم في سبيل إنقاذ أنفسكم وإنقاذ الناس من عذاب الله تعالى في الدنيا وعذابه الأليم في الآخرة ، أي غاية أشرف وأنبل من هذه الغاية ؟!

٢ ـ ولما كان هذا العمل بهذه المنزلة فالله الله أن يضيع سدى أو يصير هباءً بنزغة شيطان أو هوى نفس يلوثان العمل برياء أو إرادة دنيا فانية ، أو ابتداع في الدين بما لم يأذن به الله سبحانه ؛ إنه يمتنع صدور هذه الأمراض من عبد أيقن بالنبأ العظيم، وأيقن بيوم الحسرة الذي يتحسر فيه العبد على كل عمل لم يخلص فيه لله عز وجل ، ولم يتابع فيه الرسول ﷺ .

وإن ذلك ـ والله ـ لكائن في يوم التناد ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: ٦٥]، ويا سعد من كان جوابه : أجبناهم بالاتباع والانقياد وعدم الابتداع ، ويا خيبة وخسارة من كان حاله ، كما قال تعالى :

---

(١) مسلم في كتاب الإمارة (١٩٢٠) . والروايات في هذا المعنى كثيرة جداً في الصحيحين وغيرهما .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٦] .

٣ ـ وإن مما يحافظ على شرف الغاية في الدنيا وعظم الجزاء في الآخرة سلامة الصدور ووحدة الكلمة ونبذ الفرقة والاختلاف ؛ لأن مما يضعف أثر أهل الخير على الناس تفرقهم ومنابذة بعضهم لبعض؛ لأنهم بذلك ينشغلون بأنفسهم عن دعوة الناس كما أن الناس تضعف ثقتهم بأهل الخير إذا رأت ما بينهم من الأحقاد والإحن.

فالله الله في دعوة الله عز وجل، والله الله في العمل الصالح أن يضيع هباءً منثوراً في يوم الفاقة والحاجة ، يوم يكون العبد في أمسِّ الحاجة إلى حسنة واحدة يثقل بها ميزانه ؛ إنه لا يمكن لمن أيقن بيوم الجزاء والحساب والوقوف بين يدي الديان عز وجل أن ينفق العمر القصير في قيل وقال وأحقاد وأضغان وافتراق على أمور يسعها الاختلاف والاجتهاد ، وبقدر ما يكون من هذه الأمراض في النفوس بقدر ما يؤخر عجلة الدعوة ، ويفتح المجال للفئة المفسدة لتبث سمومها في الناس وتجرهم إلى الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة .

٤ ـ وإن من أخطر ما تفرزه الفرقة والاختلاف بين أهل الخير الظلم والعدوان والانتصار للنفس وحظوظها بتأويل ، وأحياناً بدون تأويل ، وينبغي لمن أيقن بيوم الفصل وأيقن بيوم التلاق يوم أن يلتقي الظالم بالمظلوم والجائر بالمجور عليه أن يحسب لهذا المقام حسابه ، وألا يتكلم إلا بعلم وعدل، وأن يراعي حرمة مال المسلم وعرضه وجميع حقوقه قبل أن يأتي يوم القصاص ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقبل أن يتولى الحكَمُ

العدلُ الفصلَ بين الخصوم ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١] .

٥ ـ إن اليقين باليوم الآخر وأهواله واليقين بالتبعة الفردية المذكورة في قوله تعالى : ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] ؛ إن ذلك كله يفرض على الفئة المصلحة أن يكون الحق رائد كل فرد فيها ، وهذا بدوره يخلص من الحزبية المقيتة ولوثاتها ، وما فيها من التعصب للأشخاص أو الهيئات ، فكل هؤلاء لا ينفعون عند الله عز وجل إذا لم يكن الحق هو الرائد والموجه للجميع .

وهذا يؤكد على الفئة المصلحة والداعية إلى الخير أن تربط الناس والأتباع بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح لا بآراء الرجال وعقولهم ، وهذا لا يعني التنقص لأهل العلم والدعوة وعدم تقديرهم ، كلا ؛ فلهم التقدير والمحبة والإجلال ، ولكن فرق بين التقدير والتقديس .

٦ ـ بما أن من سنة الله عز وجل ابتلاء أوليائه بأعدائه ليبلي المؤمن بلاء حسناً ، فإن مما يثبت به الله عباده المؤمنين ودعاته الصادقين أن يرزقهم الإنابة إلى دار الخلود رجاء ثواب الله عز وجل ، وأن الله تعالى ليس بغافل عن الظالمين ، فهناك يوم القصاص الأعظم ، وذكر هذا اليوم مما يصبِّر به الله سبحانه دعاته المصلحين . وكلما كان ذكر هذا اليوم العظيم في ذهن الدعاة أكثر ؛ كلما كان صبرهم وتضحيتهم أعظم وأكبر ،وهذا يقود إلى مسألة أخرى وهي :

٧ ـ أن ينتبه أهل الخير والإصلاح إلى دور اليوم الآخر والتذكير به دائماً في تربية النفوس وتهذيبها ، وأن يعنوا به عناية كبيرة في البرامج التعليمية والمناهج الدعوية ، بل ينبغي أن تربط جميع المناهج على اختلافها باليوم الآخر وأعمال القلوب، حتى يكون للمناهج أثرها العملي والتعبدي والأخلاقي ، وينبغي ألا يلتفت إلى من يقلل من شأن الحديث في اليوم الآخر والوعظ بأيامه وأهواله بحجة أنه كلام وعظي أو عاطفي أو إنشائي .

إن هذا غلط كبير وتفريط عظيم في رافد عظيم من روافد التربية والتزكية، هذا وإن كان قصد ذلك المقلل الإشارة إلى أهمية العلم والتأصيل والاستدلال ، وليس هو التهوين من ذلك اليوم العظيم ، إلا أنه ينبغي التنبيه إلى أن العلم والتأصيل والاستدلال ينبغي أن يربط ذلك كله بتعظيم الله عز وجل وعبادته والاستعداد بالعلم والعمل للدار الآخرة ، وهذا لا يتأتى إلا أن يقوم أهل العلم والتوجيه والإرشاد إلى صبغ دروسهم وحلقات تعليمهم بهذا الأمر سواء كان العلم في العقيدة، أو في الفقه وأصوله، أو الحديث ومصطلحاته، أو السيرة والتاريخ . . . إلخ .

الفئة الثانية : الفئة المفسدة الداعية إلى الشر والصادة عن الخير :

وهؤلاء هم سفلة المجتمع وهم أراذل الناس لأنهم خانوا ربهم ، وخانوا أمتهم ، وظلموها ، وعرضوا الناس للشقاء والنكد في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ، وهؤلاء هم الذين عناهم الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٣] .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: « ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل. وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم؛ لأنهم يمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله، ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته، بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين»[1].

وبمناسبة الحديث عن اليوم الآخر وأهوال النبأ العظيم أوجه الكلمات التالية لأهل هذه الفئة لعل الله عز وجل أن ينفعهم بها:

١ ـ أذكركم بموعظة الله تعالى؛ إذ يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا... الآية ﴾ [سبأ: ٤٦].

فماذا عليكم لو قام كل فرد منكم مع نفسه أو مع صاحبه، ثم فكرتم فيما أنتم عليه من فساد وصد عن سبيل الله عز وجل، هل أنتم مقتنعون بما تفعلون وبما تتسببون به على أمتكم من الشرور؟ وهل هذا يرضي الله تعالى، ويجلب النعيم لكم في الآخرة؟ إنكم إن قمتم لله عز وجل متجردين مثنى أو فرادى، وفكرتم في ذلك؛ فإن الجواب البدهي هو أن الفساد والإفساد لا

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٢٣) من سورة الأنعام.

يحبه الله عز وجل، بل يمقته ، ويمقت أهله ، وسيأتي اليوم الذي يمقت فيه أهل الفساد أنفسهم ، ويتحسرون على ما فرطوا وضيعوا وأفسدوا ، وذلك في يوم الحسرة ؛ حيث لا ينفع التحسر ولا التندم .

إن الذي يكره الخير وأهله وينشر الفساد ويصد عن سبيل الله تعالى إنما هو بين أمرين لا ثالث لهما : إما أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وما الحياة عنده إلا هذه الدنيا ، فهو يسعى ليجمع فيها ويظلم ويبطش ؛ لأنه لا يرجو اليوم الآخر ولا يخافه ، فهذا كافر مرتد ، وإن كان يخفي هذا الكفر ، فهو منافق زنديق ، أو أنه يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكن الدنيا وزخرفها ومناصبها أسكرت عقله ولبه ، فأصبح في غفلة شديدة عن الآخرة ونعيمها وعذابها حتى استمرأ الفساد وصارت الدنيا أكبر همه ؛ يلهث وراءها ، ويجمع حطامها ، ولو كان عن طريق الفساد والإفساد ، ومثل هذا الذي يؤمن بالآخرة ولكنه في غفلة شديدة عنها ، مثل هذا لا عقل له كما أن الأول لا إيمان له ، وقد يخسر إيمانه في النهاية .

والحاصل أن تتداركوا ما بقي من عمركم في التوبة إلى الله عز وجل قبل حلول الأجل ؛ حيث لا ينفع الندم ، واعتبروا بمن ذهب ممن هو على شاكلتكم بدون توبة ، وماذا بقي له من الذكر في هذه الحياة الدنيا . قارنوا من مات من أهل الخير والصلاح كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقبله الإمام أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة ، وبعده الإمام محمد بن عبد الوهاب ، رحم الله الجميع ؛ لقد بقي ذكرهم عند الناس كأنهم لم يموتوا مع ما نرجو لهم من الأجر العظيم في الآخرة ، قارنوا هؤلاء بمن مات من أهل الشر والإفساد الذين لم يبق لهم ذكر البتة ، لا بل بقي الذكر السيئ ولعنات الأمة

تلاحقهم عند ذكرهم ، مع ما يخشى عليهم من عذاب الله سبحانه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فأي الفريقين أشرف وأهدى سبيلاً ؟

٢ ـ نذكركم بيوم الحسرة والندامة يوم يتبرأ منكم الأتباع وتتبرءون من الأتباع ، ولكن حين لا ينفع الاستعتاب ولا التنصل ولا التبرؤ ، بل كما قال تعالى : ﴿ **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [سبأ: ٣٣] .

نذكركم بالأثقال العظيمة التي ستحملونها يوم القيامة من أوزاركم وأوزار الذين تضلونهم بغير علم إن لم تتوبوا، قال تعالى : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ [العنكبوت: ١٣] ، وقال عز وجل : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** ﴾ [النحل: ٢٥] .

٣ ـ لما كان الظلم قرين الفساد والإفساد ، فإنه جدير بالظالمين الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أن يتذكروا يوم الفصل والحساب ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ [غافر: ٥٢]، ليتذكر الظالمون هذا اليوم المشهود الذي يقتص فيه الحكم العدل من الظالمين للمظلومين. ليتذكروا هذا اليوم العظيم إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ما داموا في دار الدنيا، دار التوبة والاستعتاب ، فو الله إن للظالم ليوماً ينكشف فيه الغطاء ويعض فيه على يديه من الخزي والحسرة.

وإن في كتاب الله عز وجل لغنية عن أي كلام وكفاية عن أي موعظة ، قال جل وعلا : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ**

تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، وإن الظالمين جميعهم، رئيسهم ومرءوسهم، تابعهم ومتبوعهم، لهم يوم مشهود ويوم عصيب؛ يوم يلعن بعضهم بعضاً، ويحيل التبعة بعضهم على بعض، ولكن حين لا يجدي لهم ذلك إلا الخزي والبوار.

٤ ـ إن لم يجد واعظ الله سبحانه والدار الآخرة فيكم شيئاً فلا أقل من أن يوجد عندكم بقية مروءة وحياء تمنعكم من إفساد أخلاق الأمة، والوقوف في وجه المصلحين الداعين إلى معالي الأمور والأخلاق.

إن المتأمل لحال المفسدين في الأرض اليوم ليأخذه العجب والحيرة من أمرهم! فما لهم وللمرأة الحيية التي تقر في منزلها توفر السكن لزوجها وترعى أولادها، ماذا عليهم لو تركوها في هذا الحصن الحصين تؤدي دورها الذي يناسب أنوثتها وطبيعتها. ماذا يريدون من عملهم هذا؟!

ثم ماذا عليهم لو تركوا أولاد المسلمين يتربون على الخير والدين والخصال الكريمة؟ ماذا يريدون من إفسادهم وتسليط برامج الإفساد المختلفة عليهم؟ هل يريدون جيلاً منحلاً يكون وبالاً على مجتمعه ذليلاً لأعدائه عبداً لشهواته؟ إن هذه هي النتيجة. وإن من يسعى لهذه النتيجة الوخيمة التي تتجه إليها الأسر المسلمة اليوم لهو من أشد الناس خيانة لمجتمعه وأمته وتاريخه.

إن من عنده أدنى مروءة ونخوة ـ فضلاً عن الدين والإيمان ـ لا يسمح لنفسه أن يكون من هؤلاء الخونة المفسدين، وما ذكر من إفساد الأسرة إنما

هو على سبيل المثال لا الحصر.

فيا من وصلوا إلى هذا المستوى من الهبوط والانتكاس توبوا إلى ربكم، وفكروا في غايتكم ومصيركم، واعلموا أن وراءكم أنباء عظيمة وأهوالاً جسيمة تشيب لها الولدان، وتشخص فيها الأبصار، فإن كنتم تؤمنون بهذا فاستيقظوا من غفلتكم وراجعوا أنفسكم، والله جل وعلا يغفر الذنوب جميعاً، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك فراجعوا دينكم، وادخلوا في السلم كافة قبل أن يحال بينكم وبين ما تشتهون.

٥ ـ نذكر المنافقين من هذه الفئة بأن الله سبحانه يعلم سرهم ونجواهم، ويعرِّف المؤمنين بسيماهم مهما أظهروا الإسلام في الدنيا، وفي الآخرة يخزيهم ويفضحهم بين الأشهاد ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، فتوبوا إلى الله علام الغيوب ما دمتم في زمن التوبة، وصححوا بواطنكم قبل أن يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور.

الفئة الثالثة: فئة الأتباع وعامة الناس:

وهم الذين لم يصلوا في أخلاقهم وأهدافهم إلى مستوى الفئة الشريفة المصلحة، ولم يهبطوا إلى مستوى الفئة المفسدة الوضيعة الخائنة، وإنما هي فئة بين الفئتين ولديها الاستعداد للخير الذي تدعو إليه الأولى، كما أن لديها الاستعداد لتلقي الشر والإفساد الذي تسعى إليه الفئة الثانية [1]، وهذا يؤكد أهمية الدعوة، وقطع الطريق على الفئة المفسدة؛ حتى لا ينحرف الناس عن

(١) ولذلك يوجد في هذه الفئة الصالحون والفاسدون حسب نشاط أهل الخير وأهل الشر، وقد يوجد من بينهم أهل العزلة والساكتون.

الصراط المستقيم . والملاحظ في هذه الفئة أنها السواد الأعظم بينما يغلب على الفئة الأولى والثانية أنهما قلة ، والتدافع بين الفئة المصلحة والمفسدة من سنن الله عز وجل؛ حيث الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] . وإلى هذه الفئة من الناس أتوجه بهذه الكلمات :

إن تذكر اليوم الآخر ومشاهده العظيمة من أهم الأسباب التي تقي من شر المفسدين المستكبرين ، فلقد مر بنا في مشاهد النبأ العظيم أنه يوم التناد، ويوم تخاصم أهل النار ، فإذا أيقن العبد بهذه المشاهد، وأن الله سبحانه ينادي عباده: ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ عندئذ يحذر العبد أن يتبع كل ناعق ملبس ، وإنما يتبع المرسلين وأتباعهم ، كما أن تخاصم أهل النار وما فيه من تبرؤ المتبوعين من الأتباع يجعل العبد يحسب لهذا المشهد حسابه؛ حتى لا يعض على يديه حسرة وندامة ، وهذا الشعور المخيف يجعل الإنسان في حذر من أهل الشر والإفساد الذي يزينون له الباطل في الدنيا ، ويوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

فكفى بتذكر هذه المشاهد العظيمة واعظاً ورادعاً لكل من يحب لنفسه الخير؛ حتى يحذر من أهل الشر والفساد ، ويلتصق بأهل الخير والإصلاح الذي يسعون لإنقاذ الناس بإذن ربهم سبحانه من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، ويعضّ عليهم ويبذل لهم المودة والنصرة والدعاء؛ حيث إنهم أرحم الخلق بالخلق ، وهم صمام الأمان لمجتمعاتهم ، فجدير بمن هذه صفاته أن يُحبَّ ويُوَالى ويُنصر .

لقد أنعم الله سبحانه على عباده بالعقول وإرسال الرسل وإنزال الكتب حتى تبين الرشد من الغي ، ولن ينفع التابعين الذين أعطوا قيادهم لدعاة الشر وألغوا عقولهم ، لن ينفعهم يوم القيامة إلقاء التبعة على المتبوعين من المفسدين ، ولقد قامت حجة الله سبحانه على عباده ، نعم لن يجدي عن الأتباع الذين فتحوا أفكارهم وبيوتهم لأهل الشر ليفسدوا فيها ويمكروا فيها ، إذا قامت الخصومات بين يدي الحكم العدل[1] . إنهم بذلك يتحولون إلى فئة المفسدين شعروا أم لم يشعروا .

وأخيراً لنسمع إلى تحذير الله عز وجل لعباده من طاعة الشيطان وحزبه وبراءته من أتباعه يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

وبعد :

فهذا ما يسره الله سبحانه لي في هذه الرسالة ، أسأله عز وجل أن ينفعني وإخواني بها ، وما كان فيها من صواب فمن الله عز وجل ، فهو المان به فله الحمد ، وما كان فيها من خطأ فمني ومن الشيطان ، وأستغفر الله ، وأتوب إليه .

---

(١) انظر ص ١٩٤ ـ ٢٠٢ .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *